فهما كافران ، بل ويريدانك كافراً ، ومع ذلك احفظ لهما حقَّ النسب ، ولا تقطع الصلة بهما.

ويُرْوى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد أعطاه الله الخُلَّة ، وقال عنه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم] وابتلاه بكلمات فأتمهُنَّ ، مرَّ عليه عابر سبيل بليل ، فقبل أنْ يُدخله ويُضيفه سأله عن ديانته ، فأخبره أنه غير مؤمن ، فأعرض عنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتركه ينصرف . فأوحى الله إليه: يا إبراهيم وسعْتُ عبدى وهو كافر بى ، وتريده أنْ يُغيِّر دينه لضيافة ليلة؟

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب ربه له فى شأنه ، فقال الرجل: نِعْم الرب الذى يعاتب أحبابه فى أمر أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله.

ويرتقى أهل المعرفة بالنسب فيرَوْنَ أنه يتعدَّى الارتباط بسبب وجودك ، وهو الأب أو الأم ، فالنسب وإنْ كان ميلاد شىء من شىء ، أو تفرُّع شىء من شىء فهناك نسب أعلى ، لا لَمَنْ أوجدك بسبب ، وإنما لَمَنْ أوجدك بلا سبب الوجود الأول ، فكان عليك أنْ تراعى هذا النسب أولاً الذى أوجدك من عدم ، وإنْ أثبتَّ حقاً للوالدين ؛ لأنهما سبب وجودك ، فكيف بالمُوجِد الأعلى؟

فقوْل الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْـًٔا ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان]

أى: أن الإنسان لا يمكن أنْ يجزى عن إنسان مهما بلغتْ قرابته ، لايجزى الولد عن أمه أو أبيه ، أو يجزى الوالد عن أولاده.

فعدْل الله يقتضى أن يُحاسَب الإنسان بعمله ، وأنْ يُسأل عن نفسه ، فلا يرمى أحد ذنبه على أحد.

وحول هذه القضية تحدَّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون فى القرآن عن مأخذ ، فوقفوا عند هذه الآية :

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]

وقالوا: كيف نُوفِّق بينها وبين قوله:﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت]

وقوله تعالى:﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل]

ونقول: التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيِّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر فى الآية الأولى ، والوِزْر فى الآيتين الأخيرتين.

ففى الأولى وِزْر ذاتىٌّ خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضلَّ هو فى نفسه ، فيجب أنْ يتحمل وِزْر ضلاله ، أما فى الآية الثانية فقد أضلَّ غيره ، فتحمَّل وِزْره الخاص به ، وتحمَّل وِزْر مَنْ أضلَّهم.

لذلك قال الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة]

وهذه الآية تعالج قضية خطيرة فى المجتمع الإسلامى ، قضية تقليد الناس لعادات آبائهم ، والتقليد هو نشأة طبيعية فى الإنسان ؛ لأن الإنسان حين يخرج للوجود مُمداً بطاقة الحياة ، فهذه الطاقة تريد أنْ تتحرك ، وحركتها تأتى دائماً وَفْق ما ترى من حركة السابق لها.

فالطفل الصغير لا يعرف أن يده تتناول أشياء ، إلا إذا رأى فى البيئة المحيطة به إنساناً يفعل ذلك ، وحين يريد الطفل أن يتحرك فهو يُقلِّد حركة

الذين حوله ؛ ولذلك تجد الأطفال دائماً يُقلِّدون آباءهم فى معظم حركاتهم ، وحين يوجد الأطفال مع أجيال متعاقبة تمثل أعماراً مختلفة ، فإن الطفل الصغير يُقلِّد فى حركته البدائية خليطاً من حركات هذه الأجيال ، فهو يُقلِّد جدَّه ، ويُقلِّد جدَّته ، ويُقلِّد أباه وأمه ، وإخوته ، فتنشأ حركات مختلطة تمثل الأجيال كلها.

ولذلك ، فاندماج الطفل فى أسرة مكونة من آباء وأجداد ، تمثل فى الإنسان طبيعة الحياة المتصلة بمنهج الحركة فى الأرض وبمنهج السماء ؛ لأن الطفل حين يعيش مع أبيه فقط ، قد يجده مشغولاً فى حركة الحياة التى ربما شدَّته عن قيم الحياة أو عن منهج السماء ، لكنه حين يرى أباً لأبيه هو جدّه قد فرغ من حركة الحياة ، واتجه إلى منهج القيم ؛ لأنه قريب عَهْد فيما يظن بلقاء الله ، فإنْ كان لا يصلى فى شبابه فهو يصلى الآن ، وإنْ كان لا يفعل الطاعات سابقاً ، أصبح يفعلها الآن.

وهكذا يرى الطفل حركة الحياة الجامحة فى الدنيا والتلهف عليها من أبيه ويجد الإقبال على القيم والعبادات من جده ، ولذلك تجده ربما عاون جده على الطاعة ، فساعة يسمع الطفل المؤذن يقول:«الله أكبر» فهو يعرف أن جدَّه يريد أنْ يصلى ، فيذهب هو ويأتى بالسجادة ويفرشها لجدِّه ، ويقف مُقلِّداً جدَّه ، وإنْ كانت بنتاً ، فنحن نجدها تُقلِّد أمها أو جدتها ، وتضع الغطاء على رأسها لتصلى.

إذن: فاندماج الأجيال يعطى الخير من الحركتين ، حركة مادية الحياة ، وحركة قيم منهج السماء ؛ ولذلك يمتنُّ الحق علينا قائلاً:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴿٧٢﴾﴾ [النحل]

إذن: فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود.

وحين يدعو الله الناس أنْ يتبعوا ما يُنزله على الرسل فهو ينهاهم أنْ يتبعوا تقليد الآباء فى كل حركاتهم ؛ لأنه قد تكون حركة الآباء قد اختلَّتْ بالغفلة عن المنهج أو بنسيان المنهج ؛ لذلك يدعونا ويأمرنا سبحانه أنْ ننخلع عن هذه الأشياء ونتبع ما أنزل الله ، ولا نهبط إلى مستوى الأرض؛ لأن عادات ومنهج الأرض قد تتغير ، ولكن منهج السماء دائماً لا يتغير ، فاتبعوا ما أنزل الله.

والناس حين يحتجُّون يقولون: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، وتلك قضية تبريرية فى الوجود ، ولو كان ذلك حقاً وصِدْقاً ، ومطابقاً للواقع ، لما كرر الله الرسالات ، بعد أنْ علَّم آدم كل المنهج الذى يريد ؛ لأننا لو كنا نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، لكان أبناء آدم سيتبعون ما كان يفعله آدم ، وأبناء أبناء آدم يتبعون آباءهم ، وهكذا يظل منهج السماء موجوداً متوارثاً فلا تغيير فيه.

إذن: فما الذى اقتضى أنْ يتغير منهج السماء؟

إن هذا دليل على أن الناس قد غيَّروا المنهج؛ ولذلك فقولهم: ﴿**نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴿١٧٠﴾﴾ [**البقرة**] هى قضية مكذوبة؛ لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم ، لظلَّ منهج الله فى الأرض مضيئاً غير متأثر بغفلة الناس ولا متأثراً بانحرافات أهل الأرض عن منهج السماء ، وهو تبرير يكشف أنَّ ما وجدوا عليه آباءهم يوافق أهواءهم.

وقوله الحق: ﴿**اتَّبِعُوا**﴿١٧٠﴾﴾[**البقرة**] أى: اجعلوا ما أنزل عليكم من السماء متبوعاً ، وكونوا تابعين لهذا المنهج ، لا تابعين لسواه ، لأن ما سوى منهج السماء هو منهج من صناعة أهل الأرض ، وهو منهج غير مأمون.

وقولهم: ﴿مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة] أى: ما وجدنا عليه آباءنا ، وما تفتحتْ عليه عيوننا فوجدناه حركة تُحتذى وتُقتدى .

والحق يُبيِّن لهم أن هذا كلام خاطىء ، وكلام تبريرى وأنتم غير صادقين فيه ، وعدم الصِّدْق يتضح فى أنكم لو كنتم مُتبعين لمنهج السماء ، لما تغيَّر المنهج ، هذا أولاً ، أما ثانياً فأنتم فى كثير من الأشياء تختلفون عن آبائكم ، فحين تكون للأبناء شخصية وذاتية فإننا نجد الأبناء حريصين على الاختلاف ، ونجد أجيالاً مُتفسِّخة ، فالأب يريد شيئاً ، والابن يريد شيئاً آخر.

لذلك لا يصح أنْ يقولوا: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴿١٧٠﴾﴾[البقرة] ؛ لأنه لو صحَّ ذلك لما اختلف منهج الله على الأرض ، لكن المنهج اختلف لدخول أهواء البشر ، ومع ذلك نرى بعضاً من الخلاف فى سلوك الأبناء عن الآباء ، ونقبل ذلك ونقول: هذا بحكم تغيير واختلاف الأجيال ، أى: أن الأبناء أصبحت لهم ذاتية ؛ ولذلك فالقول باتباع الأبناء للآباء كذب لا يُمثِّل الواقع.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يردُّ على هذه القضية ؛ لأنها قضية تبريرية لادليلَ لها من صِدْق ، ولا برهانَ لها من واقع.

ويقول سبحانه :﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة] أى: أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون؟

إذن: الرد جاء من ناحيتين ، من ناحية التعقُّل ، ومن ناحية الاهتداء ، وكلٌّ من التعقُّل والاهتداء منفىٌّ عن الآباء فى هذه الآية ، فأنتم تتبعونهم اتباعاً بلا تفكير ، اتباعاً أعمى.

والإنسان لا يطيع طاعةً عمياء إلا لمن يتيقَّن صِدْق بصيرته النافذة المطلقة

وهذه لا يمكن أن تتأتى من بشر إلى بشر ، فالطاعة المطلقة لا تصح أن تكون لشيء إلا لمنهج السماء .

وحين تكون طاعة عمياء لمن تثق ببصره الشافى الكافى الحكيم ، فهى طاعة مُبْصرة وبصيرة فى آنٍ واحد ؛ لأنك تحمى نفسك من خطأ بصرك ، وخطأ بصيرتك ، وتلتزم فى التبعية بمَنْ تعتقد أن بصره وبصيرته لا يخطئان أبداً عندها لا تكون طاعة عمياء .

إذن: فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُنبِّههم إلى أنه لا يصحُّ أنْ تقولوا : إنكم تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ؛ لأنه يجوز أنْ يكون آباؤكم لا يعقلون ، ويجوز أن يكونوا غير مهتدين ، لو كان آباؤكم لهم عقل أو لهم اهتداء ، عند ذلك يكون اتباعكم لهم أمراً سليماً ، لا لأنكم اتبعتم آباءكم ، ولكن لأنكم اتبعتم المعقول والهدى .

وهكذا نجد أن قضية التقليد هى أمر مزعوم ؛ لأنك لا تقلد مساويك أبداً ولكنك تتبع مَنْ تعتقد أنه أحكم منك ، وما دام مساوياً لك فلا يصحُّ أن تُقلِّده فى كل حركة ، بل يجب أن تعرض الحركة على ذِهْنك ؛ ولذلك فتكليف الله لعباده لم ينشأ إلا بعد اكتمال العقل بالبلوغ.

فهو سبحانه لا يأخذ العقل على غِرَّة قبل أن ينضج ، بل لا يُكلِّف الله عبداً إلا إذا نضج عقله ، ولا يُكلِّفه إنْ لم يوجد له عقلاً ، ولا يُكلِّفه إنْ لم تكُنْ قوته وراء عقله ، فإنْ كان الإنسان سليم القوة والعقل فإن تكليفه يكون تاماً ، فسبحانه لا يكلف إلا صاحب العقل الناضج ، والذى لديه قدرة تُمكِّنه من تنفيذ ما اهتدى إليه عقله ، أى : غير مُكره.

فالذى يُكلِّف الإنسان بمقتضى هذه الأشياء هو عالم أن العقل إنْ وُجِد ناضجاً بلا إكراه ، فلا بُدَّ أن يهتدى إلى قضية الحق.

فالحق سبحانه لا يفاجىء الإنسان بتكليف إلا بعد أن يُعدَّه إعداداً كاملاً لأنه لو كلَّفه قبل أنْ ينضج غريزياً ، وقبل أنْ تصبح له قدرة على استبقاء النوع لَقالَ الإنسان : إن الله كلفنى قبل أنْ يُوجد فىَّ ذلك ، عندئذ لا يكون التعاقد الإيمانى صحيحاً .

ولذلك يُؤخِّر الحق تكليفه لعباده ، حتى يكتمل لهم نُضْج العقل ، ونُضْج الغريزة معاً ، وحتى يدخل الإنسان فى التكليف بكل مُقوِّماته وبكل غرائزه وانفعالاته ، حتى إذا تعاقد إيمانياً ، فإن عليه أنْ يلتزم بتعاقده .

إذن : فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يُربِّى فى الإنسان ذاتيته من فَوْر أنْ يصبح صالحاً لاستبقاء النوع فى غيره ، وما دامتْ قد أصبحت له ذاتية مكتملة ، فالحق يريد أنْ يُنهى عنه التبعية لغيره ، عند ذلك لا يقولن أحد «أفعل مثل فِعْل أبى » .

لكن هناك مَنْ قالوا ﴿ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠) ﴾ [البقرة]

لماذا يتبعون آباءهم فى المنهج الباطل ، ولايتبعونهم فى باقى أمور الدنيا؟

إذن : فلا شىءَ قد جعلهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم إلا لأنهم وجدوا فيه ما يوافق هواهم ، بدليل أنهم انسلخوا عن تبعيتهم لآبائهم فى أشياء رأوها فى سلوك الآباء وخالفوهم فيها ، وما داموا قد خالفوهم فى أشياء كثيرة فلماذا يتبعونهم فى الدين الزائف !

إن الله يريد أنْ يُخلِّص الإنسان من إسار هذا الاتباع ، ويلفت العباد : تعقلوا يا مَنْ أصبحت لكم ذاتية ، وليعلم كل منكم أنه بنُضْج العقل يجب أنْ يصل إلى الهداية إلى الخالق الواحد الأحد ، فإنْ كنت قد التحمتَ بأبيك فى أول الأمر لأنه يعولك ويمدّك ، فهذا الأب هو مجرد سبب أراده الله لك ، ولكن

الله هو خالقك ، وهو الذى أنزل المنهج الذى يجب أن تلتحم به لتصير حياتك إلى نماء وخيْر .

وهو سبحانه يقول : ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا(٣٣)﴾ [لقمان]

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُفصِّل لنا هذا الأمر بدقة ، فإذا كان الآباء لا يعقلون ، فماذا عن موقف الأبناء ؟ إن على الأبناء أن يُصلحوا أنفسهم بمنهج الحقِّ .

وإلاَّ فَلْيُوقِنْ الجميع أنه راجع إلى الله مُحاسَب عن نفسه ، ومسئول عن أفعاله وأعماله ، اقترفها من كسب يده . يقول تعالى: ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)﴾ [لقمان]

ويقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) ﴾ [يونس]

فحين يقول سبحانه :﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا(٤)﴾[يونس] فهذا إعلام لكل الخَلْق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذى قد يُطاع وقد يُعصى ، فَمَنْ أطاع يفرح ، ومَنْ يَعْصِ يحزن ؛ لأنه سيَلْقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله.

فالطائع يفرح بجزاء الله له ، وعلى العاصى أنْ يراجع نفسه قبل أنْ يرجع إلى الله ، ولنعلم أن وعد الله حَقٌّ ؛ لأنه سبحانه يملك ما يَعد به ، وسبحانه مُنزَّه عن الكذب والخديعة ؛ لأنه القائل: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾ [النساء]

وهو سبحانه أقوى مما خلق وممَّن خلق ، ولا تخونه إمكاناته ، لأنه يملك الكون كله.

والرجوع إلى الله يُطمئن الملتزمين بمنهج الله إلى أن هناك بَعْثاً وحساباً ؛ لأن المؤمن المطيع لا بُدَّ أنْ ينال حُسْن الثواب ، وأنْ ينال العاصى الشرير الذى شقيتْ الدنيا كلُّها بعصيانه العقابَ ؛ ولذلك لا بُدَّ من الإعادة ؛ ليجزى الله كل واحد بعمله بالقسط.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)** ﴾ [لقمان]

فعَرَض الدنيا ومتاعها كالماء المالح ، كلما شربتَ منه ازددتَ ظمأً ، فالإنسان من هؤلاء يخدع نفسه ويغشُّها ، ويغتر بالمال والأولاد ، وينسى أن الحياة تسير بأمر مَنْ يملك المُلْك كله ، فهو يأخذ مسألة الحياة فى غير موقعها ، فالغرور بالمال والأولاد فى الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أنْ يعيش الحياة بلا مال أو أولاد.

ومَنْ يغترّ بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرةً عليه ، لماذا؟ لأنه كلما تذكَّر أن المال والأولاد أبعداه عَمَّا يؤهله لهذا الموقف فهو يعانى من الأسى ، ويقع فى الحسرة .

ولنا أن نسأل : ما الغرور ؟ إن الغرور هو الإطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، فعندما تقول لواحد والعياذ بالله : «أنتَ مغرور» فأنت تقصد أنه يسلك سبيلاً لا يُوصِّله إلى الهدف المنشود . إذن : فالغرور هو الإطماع فيما لايصحُّ ولا يحصل ، ولذلك يُسمِّى اللهُ الشيطانَ «الغَرور».

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)** ﴾ [فاطر]

إنه الشيطان الذى يُزيِّن للناس بعض الأمور ، ويحثُّ الخلق ليطمعوا فى حدوثها ، وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صوابَ فيها ، فهى مما زيَّنه الشيطان لذلك فحصيلتها لا تتناسب مع الطمع فيها.

والحق سبحانه يقول عن الدنيا : ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ(١) فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا (٢٠)**﴾ [الحديد]

ويُقال عن الرجل الذى ليس له تجربة :«إنه غِرٌّ» فيأتى بأشياء بدون تجربة فلا ينتفع منها ولا تصح . إذن : فكلُّ مادة «الغرور» مأخوذة من إطماع فيما لا يصحّ ولا يحصل ؛ لذلك سمَّى الله الشيطان «الغرور» ؛ لأنه يُطمعنا نحن البشر بأشياء لا تصحّ ولا تحدث ؛ ولهذا سوف يأتى الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ويتهمهم بالبلاهة :

﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(٢) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)** ﴾ [إبراهيم]

فما دام الشيطانُ تولاَّهم فى الدنيا وزيَّن لهم وأغراهم بعداء الرسل فَلْيتولَّهم الآن ، وليدافع عنهم يوم القيامة ، ولكنه يتنصَّل من المسئولية : ما كان عندى من سلطان عليكم ، لا سلطانَ حجة تقنعكم أنْ تفعلوا عن رضاً ، ولا سلطانَ قَهْر أجبركم به أنْ تفعلوا وأنتم كارهون ، أنا فقط أشرْتُ ووسوستُ فأتيتمونى طائعين.

---

١) هاج النبت يهيج: أدرك النضج واصفرَّ . وذلك عند تمام نضجه أى يكثر ويزداد أو ييبس ويصفر . [القاموس القويم ٢/ ٣١٢].

(٢) استصرخه : استغاث به . والمُصرخ: المغيث المنقذ من يستصرخه [القاموس القويم ١/ ٣٧٣].

﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

أى: نحن فى الخيبة سواء ، فلا أستطيع نجدتكم ، ولا تستطيعون نجدتى، لأن الصراخ يكون من شخص وقع فى ضائقة أو شدة ، لا يستطيع الخلاص منها بنفسه ، فيصرخ بصوت عال لعله يجد مَنْ يُغيثه ويُخلِّصه ، فإذا ما استجاب له القوم فقد أصرخوه . أى : أزالوا سبب صُرَاخه .

إذن : فالمعنى : لا أنا أستطيع إزالةَ سبب صراخكم ، ولا أنتم تستطيعون إزالة سبب صراخى .

لذلك كان الشيطان هو المراد بالغَرور الذى يغُرُّ الناس بوساوسه وتزيينه الشر ، ثم إذا حلَّ عقاب الله وعذابه تولَّى عنهم وتخلَّى عن مناصرتهم : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

١٦ هل من خالق غير الله؟

يُذكِّر الحق سبحانه الناس بنعمة الله عليهم ، وهو وحده الخالق ، وهو وحده الرازق ، الذى لا إله إلا هو ، حولهم السماء والأرض تفيضان عليهم بالنِّعَم، وتفيضان عليهم بالرزق ، وفى كل خُطْوة ، وفى كل لحظة فيض ينسكب من خيرات الله ونعمه ، يفيضها الخالق على خَلْقه ، فهل من خالق غيره يرزقهم بما فى أيديهم من هذا الفيض العميم ؟

يقول الحق سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر]

الذِّكْر هو الحفظ من النسيان ؛ لأن روتين الحياة يجعلنا ننسى المسبِّب للنعم فالشمس تطلع كل يوم ، كم منَّا يتذكر أنها لا تطلع إلا بإذن الله فيشكره ، والمطر ينزل كل فترة ، مَنْ مِنّا يتذكر أن المطر يُنزِله الله فيشكره ، فالذكْر يكون باللسان والقلب .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ غيْب مستورٌ عنَّا ، وعظمته أنه مستور ، ولكن نِعَم الله سبحانه تدلُّنا عليه ، فبالذكر يكون فى بالنا دائماً ، وبنعمه يكون ذِكْره وشكره دائماً.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب من الناس أنْ يذكروا النعمة التى أنعمها

عليهم فقط ، وكـان يجب عليهم أنْ يطيعوا الله فيـذكروا المنعمَ ؛ لأن ذِكْر الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجعلك فى ركن ركين ، لا يصل إليك مكروه ولا شر .

إن ذِكْـر الله المنعم يعطينا حـركة الحـياة فى كل شىء ، فـذِكْر الله يُوجِـد فى القلوب الخشـوع ، ويُقلِّل من المعاصى ، وينتفع الـناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ (٣) ﴾ [فاطر] معناها : اذكرونى حتى بالنعمة التى أنعمتُ عليكم.

والذِّكْر هو استحضـار الشىء إلى الذِّهْن ؛ لأن الغفلة تـطرأ على الإنسان وعليـه ألاَّ يستمـر فيـها ، وبعض أهل الإشـراق والشطح يتلاعـبون بالمواجـيد النفسية ، فيقول واحد منهم : يعلم الله أنِّى لستُ أذكره .. وحين يسمع الإنسان هذا القول قد يُوجِّـه لصاحبه التأنيب والنقد العـنيف ، لكن القائل يحلل الأمر التحليل العرفاني ، فيكمل بيت الشعر بالشطر الثانى:

إذْ كيْفَ يذكُرهُ إذْ لَسْتُ أنْسَاهُ

فالذكْر هو حِـفْظ الشىء أو استحضـاره ، فإذا كان حِفْظ الشىء فـهو حِفْظٌ لذاته ، لكن الاستحضار يكون لمعنى الشىء .

إذن: هناك فَرْق بين حفظ الشىء واستحضار الشىء ، هذا هو معنى الذكر ، وقد يكون الذكر بمعنى القول ؛ لأنك لا تقول الشىء إلا بعد أنْ تستحضره .

ولذلك نجد فى تكوين الجهاز العصبى الأعلى : ذاكرة ، وحافظة ، ومُخيلة . ومن عجيب أمر التكوين الخلقـى أنْ تمرَّ أحداث على الإنسان فى زمن مضى ، ولا يذكرها الإنـسان لمدة طويلة تصل إلى سنوات ، ثم يأتى للإنـسان ظرف

من تداعى المعانى ، فيذكر الإنسان هذا الشىء الذى حدث منذ عشرين عاماً .

إذن: فالشىء الذى أدركه الإنسان منذ عشرين سنة على سبيل المثال لم يذهب ، ولو ذهب ما ذكره الإنسان ، لكنه غاب فقط عن الذهن عشرين عاماً أو أكثر ، فلما تداعتْ المعانى تذكَّره الإنسان ، ومعنى ذلك أن هذا الشىء كان محفوظاً عند الإنسان وإنْ توارى عنه مدة طويلة .

فالذاكرة ـ إذن ـ معناها أنْ يستدعى الإنسان المحفوظَ ليصير فى بؤرة شعوره . مثال ذلك : حادث وقع بين إنسان وآخر منذ أكثر من عشرين عاماً ، ونسى الإنسان هذا الحادث ، فلما التقى بصديقه ، وجلسا يتذاكران الماضى تذكّر الصديق الحادث الذى حدث له منذ أكثر من عشرين عاماً.

إذن: فالحادثة لم تذهب من الذاكرة ، ولكنها محفوظة موجودة فى حواشى الشعور البعيدة ، وكلما بَعُد الإنسان فى الزمن يبدو وكأنه نسى الحادثة ، لكن عندما يأتى تداعى المعانى فالحادثة تأتى فى بُؤْرة الشعور ، فإذا ما جاءت فى بؤرة الشعور من حواشى الشعور حيث مخزن الحافظة ، يتذكرها الإنسان ، وهذه هى قوة الخالق جلَّ وعلا.

وانطباعات الإنسان فى نِعَم الله لا تُنسى أبداً ، وهى موجودة عند الإنسان ولكنها تريد من الإنسان أنْ يستدعيها من الحافظة ويطلبها.

ولْنَرَ دقة الأداء القرآنى : ﴿ **اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ، فسبحانه وتعالى يقول هنا : نعمة . مع أن نِعَم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أنْ يأتى بالمفرد ولم يأت بالجمع ، وذلك ليبين للإنسان أن أية نعمة فى أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أنْ يذكرها الإنسان .

فالحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا إلى أن كل نعمة واحدة لو استقصيت عناصرها وتكوينها لوجدت فى طياتها نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى .

فنِعَم الله كثيرة ، ولكن ليتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هى نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع ، وكل نعمة من هذه النعم تستحق من الإنسان أنْ يتذكرها دائماً ، ولا تطرد نعمةٌ نعمةً أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟

ولو تمعَّن الإنسان فى كل نعمة لاحتاجتْ إلى أنْ يتذكرها دائماً ، أو أن النعمة اسم للجنس كله ، لأن المفرد يُطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها تُطلق على كل فرد من أفراده مثل محمد وعلى وخالد.

وكلمة «النعمة» قد تُنسب إلى سببها كنعمة سببها مروءة واحد من البشر وهى محدودة بمقدار الأثر الذى أحدثته ، لكن نحن هنا أمام نعمة المسبِّب وهو الله ، ولابُدَّ أن تناسب نعمة الله جلال وجمال عظمته وعطائه .

فكل نعمة على انفراد تستحق أنْ نشكر الله عليها ، فكُلُّ نعمة مفردة فى عظم وضخامة تستحق الشكر عليها ، أو أن نعمة الله هى كل فَيْضه على خَلْقه ، فأفضل النعمة أنه ربنا.

يقول الحق سبحانه عن نعمة الله على عباده : ﴿**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** (٣٤)﴾ [إبراهيم]

فنحن أمام ثلاثة عناصر : نعمة ، ومُنعِم ، ومُنعَم عليه . أما من جهة النعمة وأفرادها فلن يقدر البشر على إحصائها لأنها فوق الحصر ، ومن جهة المنعِم فهو غفور رحيم ، ومن جهة المنعَم عليه فهو ظلوم كفَّار ، لماذا يأتى الله لنا بمثل هذه الحقائق؟

إنه سبحانه لو عـاملنا بكُفْرنا وجُحودنا وظُلْمنا لمنع النعمـة ، ولكن استدامة نعمـة الله علينا فَضْلٌ منـه ورحمة ؛ لأنهـا تشملنا حـتى ولو كُنَّا ظالمين ، أو كُنَّا كفاراً.

ولذلك ، فعندما يرتكب الإنسان ذنباً فإن أهل الإيمان يقولون له : لاتيأس ، فربك هو ، هو ، إنه غفور رحيم . ولذلك لا تسـتحى أيها العبد أن تطلب من ربك شيئاً على الرغم من معصيتك ، فالله غفور رحيم.

فالحق سـبحـانه لا يتخلى عن العـاصين ، فيـمنع عنهم النعم ، فـهو الذى استدعاهم جميعاً إلى الوجود.

والحق سبـحانه أعطانا مما نسأل قـبل أن نسأل ، وأعدَّ الـكون لنا من قبل أنْ نوجد ، وقد سبقتْ النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكونُ آدمَ ، وهو مُعَدٌّ لاستقباله .

والحق سبحانه حينما يتحدث عن نعمه يقول:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴿١٨﴾﴾ [النحل]

فمـجرد الإقـبال على العَـدِّ معناه أن الشىء يمكـن إحصاؤه ، فـإن لم يكُنْ ممكناً لا يُقبل أحد على عدِّه ، ولا نرى مَنْ حاول عدَّ حبَّات الرمال ، أو ذرات الماء فى البحار .

نِعَم الله ـ سـبحـانه وتعـالى ـ ظاهرة وخـفيـة لا يمكن أن تُحصى ، ولذلك لايُقبل أحـد على إحصائهـا ، فليستْ هناك إرادة أو قدرة تستطيع أنْ تُحصِى عطاءات الله التى فوق العدِّ والحدِّ.

وعلى الرغم من التـقدم وصناعـة الحاسب الآلى «الكمبيوتر» لم يـستطع

أحد ، ولم يُقبل أحد على إحصاء نِعَم الله فى الكون ، ذلك أن العَدَّ والإحصاء يقتضى كلياً له أفراد ، أو كلاً له أجزاء .

وأنت إنْ نظرتَ إلى أىّ نعمة من نِعَم الله ، قد تظنها نعمة واحدة ، ولكنك إنْ فصَّلْت فيها ستجدها نعماً متعددة وشتى .

فإنْ أخذتَ نعمة الماء مثلاً ستجده نعماً متعددة ، فهى مُكوَّنة من عناصر ، كل عنصر فيها نعمة ، وإنْ أخذتَ نعمة الأرض ستجد فيها نعماً كثيرة مطمورة ، وهكذا تكون كل نعمة من الله مطمور فيها نعم متعددة ولا تُحصى.

والحق سبحانه يعطينا نماذج من نعمه سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وأول تلك النعم خَلْق السماوات والأرض ، ثم إذا نظرتَ لبقية النعم فستجدها قد جاءت بعد خَلْق السماوات والأرض ، وشىء من تلك النعم مُتَّصل بالسماء مثل السحاب ، وشىء متصل بالأرض مثل الثمرات التى تُخرجها .

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا تكلم الحق سبحانه عن حَصْر بعضٍ من نعمه الكلية علينا نحن العباد ، سماء ، وأرض ، وماء ينزل ، وثمرات تنبت من الأرض ، وكذلك سخر لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهذا ما يُسمَّى تعديداً لبعض النعم.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن تفصيل نعمة الله فى خَلْق السماء والأرض ورزق الله سبحانه وتعالى الذى ينتج من تفاعل الماء النازل من السماء مع مُكوِّنات الأرض ، فيقول تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة]

والأرض هى المكان الذى يعيش فيه الناس ، ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه خلق الأرض أو أوجدها . إذن: فهى آية ربوبية لا تحتاج لكى نتنبه إليها إلى جهد عقلى ، لأنها بدهيات محسومة لله سبحانه وتعالى:

وقوله تعالى : ﴿فِرَاشًا(٢٢)﴾ [البقرة]

توحى بأنه أعدَّ الأرض إعداداً مريحاً للبشر، كما تفرش على الأرض شيئاً تجلس عليه أو تنام عليه ، فيكون فراشاً يريحك ، ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل ، وهى تصلح لحياتنا جميعاً ، ومنذ أنْ خُلِقت الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشاً للإنسان .

قد يقول بعض الناس: إنك إذا نمتَ على الأرض فقد تكون غير مريحة تحتك ، فيها حصى أو غير ذلك مما يضايقك ، نقول : إن الإنسان الأول كان ينام عليها مستريحاً . إذن : فضرورة النوم ممكنة على الأرض .

وعندما تقدمتْ الحضارة وزادتْ الرفاهية ظلت الأرض فراشاً رغم ما وُجد عليها من أشياء لينة ، فكأن الله تعالى قد أعدَّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل ، فكلُّ جيل رُفِّه فى العيش بسبب تقدُّم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يُطوِّع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ونلاحظ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى آية أخرى يقول:

﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا ﴿١٠﴾﴾ [الزخرف]

والمهد هو فراش الطفل ، ولابُدَّ أن يكون مريحاً لأن الطفل إذا وجد فى الفراش أىَّ شىء يتعبه ؛ فإنه لا يملك الإمكانات التى تجعله يريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نوماً مريحاً ، ولكن الذى يمهد الأرض لكل خَلْقه هو الله سبحانه وتعالى ، يجعلها فراشاً لعباده .

وإذا قرأت قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك]

فإن معنى ذلك أن الحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، تعطيه كل ما يحتاج إليه ، فالأرض مُسخَّرة للإنسان يسعى فيها ويضرب فيها ، ويأكل من رزق الله الناتج منها .

ويأتى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى السماء فيقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة] ، والبناء يفيد المتانة والتماسك ، أى : أن السماء ـ وهى فوقك ـ لا ترى شيئاً يحملها حتى لا تسقط عليك ، إنها سقف متماسك متين.

ويؤكد الحق هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء]

والهدف من هذه الآيات كلها أنْ نطمئن ونحن نعيش على الأرض أن السماء لن تتساقط علينا ؛ لأن الله يحفظها ، فمن آيات الحق سبحانه وتعالى فى الأرض أنه جعلها فراشاً أى : مُمهدة ومريحة لحياة الإنسان ، وحفظ السماء بقدرته جَلَّ جلاله فهى ثابتة فى مكانها ، لا تهدد سكان الأرض وتفزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]

فكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وضع فى الأرض وسائل استبقاء الحياة ، فلم يترك الإنسان على الأرض دون أنْ يُوفِّر له وسائل استمرار حياته ، فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل ما علاك فأظلَّك ، فينبت به الزرع والثمر ، وهذا رِزْق لنا ، والناس تختلف فى مسألة الرزق.

والرزق هو ما يُنتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه ، فقد تربح مالاً وافراً ، ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه ، فلا يكون هذا رزقك ، ولكنه رزق غيرك ، وأنت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى تُوصِّله إلى صاحبه .

والرزق فى نظر معظم الناس هو المال ، قال ﷺ :«يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت» (١).

هذا هو رزق المال ، وهو جزء من الرزق ، ولكن هناك رزق الصحة، ورزق الولد ، ورزق فى الطعام ، ورزق فى البركة ، وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هى رزق ، وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يلفتنا إلى أن نفكر قليلاً فيمن خلق هذا الكون ، لنعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه.

وقد ربط الحق سبحانه الرزق بالسماء ، فقال سبحانه : ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴿٢٢﴾﴾[البقرة] ، ليلفتنا إلى أن الرزق ، لا يأتى إلا من أعلى ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤ / ٢٤ ، ٢٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه.

وضرب الله المثل بالماء لأنه رزق مباشر محسوس منا ، والماء ينزل من السماء فى أنقى صوره مُعَطَّراً ، كل ما يأتينا من السماء فيه عُلُو ، ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاءً.

عملية ، لو أراد البشر أنْ يقوموا بها ما استطاعوا لأنها كانت ستتكلف ملايين الجنيهات لتعطينا ماء لا يكفى أسرة واحدة ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل من السماء ماء فى أنقى صوره لينبت به الثمرات التى تضمن استمرار الحياة فى هذا الكون .

وبعد أن نفهم هذه النعم كلها والإعجاز الذى فيها ونستوعبها ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]

والنِّدُّ هو النظير أو الشبيه ، وأىّ عقل فيه ذرة من فكر يبتعد عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيراً ولا يُشبِّه بالله تعالى أحداً ، فالله واحد فى قدرته ، واحد فى قوته ، واحد فى خَلْقه ، واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته.

ولا توجد مقارنة بين صفات الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وصفات الخَلْق ، والله خلق لكل منَّا عقلاً يفكر به ، لو عرضتَ هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ، لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق.

فمَنْ ذا الذى يستطيع أنْ يدَّعى أنه خلقكم والذين من قبلكم؟ ومَنْ ذا الذى يستطيع أنْ يدَّعى ولو كذباً أنه هو الذى جعل الأرض فراشاً ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر وأنبت الزرع ؟ لا أحد .

إذن: فأنتم تعلمون أن العقل كله لله وحده ، وما دام لا يوجد معارض ، ولا يمكن أنْ يوجد ، فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر]

وفى آية أخرى يقول : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر]

فالله الذى أعطاكم كلَّ هذه النعم هو خالق كل شىء ، وقد حكم بأنه لا إله إلا هو ؛ ولذلك يقولون : الله آمن بذاته ، وشهد لنفسه أنه لا إله إلا هو .

والحق سبحانه ذو فضل على الناس ؛ لأنه أعطاهم بلا حَقٍّ لهم عليه ، فهو مُتفضِّل فى الإيجاد ، ومُتفضِّل فى الإمداد ، ومُتفضِّل فى التكليف ؛ لأنه كلفك بشىء لا يعود عليه بنفع ، ولكنه يعود عليك أنت بالخير ، ومع أنك أنت المنتفع يجازيك على هذا الفعل ، ويعطيك عليه ثواباً.

فهذا فضل منه سبحانه ، ومع هذا تجد أن أكثر الناس لا يشكرون الله مع أنهم لو شكروا لعرفوا مزيد النعم عند الله تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم]

فالشكر على النعمة يعطينا مزيداً من النعمة ، فنشكره عليها فيعطينا المزيد، وهكذا يظل الحمد دائمًا، والنعمة دائمة، إننا لو استعرضنا حياتنا كلها ، فكُلُّ حركة فيها تقتضى الحمد ، عندما ننام ويأخذ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرواحنا ، ثم يردُّها إلينا عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد.

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر]

وهكذا ، فإن مجرد استيقاظنا من النوم ، وأن الله سبحانه وتعالى ردَّ علينا أرواحنا ، هذا الرد يستوجب الحمد والشكر ، فإذا قمنا من السرير فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا أنْ نقوم ، وهذا يستوجب الحمد والشكر.

فإذا تناولنا إفطارنا فالله هيَّأ لنا طعاماً من فضله ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى أنبته ، وهو الذى رزقنا به ، وهذا يستوجب الحمد.

فإذا نزلنا إلى الطريق يسَّر الله لنا ما ينقلنا إلى مقرِّ أعمالنا وسخره لنا ، سواء كنا نملك سيارة أو نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، وإذا تحدثنا مع الناس فالله سبحانه هو الذى أعطى ألسنتنا القدرة على النطق ، ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق ، وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا إلى أعمالنا فالله يسَّر لنا عملاً نرتزق منه لنأكل حلالاً ، وهذا يستوجب الحمد.

وإذا عُدْنا إلى بيوتنا فالله سخَّر لنا زوجاتنا ، ورزقنا بأولادنا ، وهذا يستوجب الحمد .

إذن: فكلُّ حركة حياة فى الدنيا من الإنسان تستوجب الحمد ، ولهذا لا بُدَّ أن يكون الإنسان حامداً دائماً ، شاكراً أبداً ، بل إن الإنسان يجب أنْ يحمد الله على أىِّ مكروه أصابه ؛ لأنه قد يكون الشىء الذى يعتبره شراً هو عينه الخير .

والحمد والشكر وإنْ كان شكراً للمنعم سبحانه وثناءً عليه ، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر ؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ۝٧﴾[إبراهيم]

فمَنْ أراد الخير لنفسه وأحبَّ أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا ، فالشكر يكون لله استدراراً لمزيد نعَمه ، لذلك حينما تقول عند نعمة الغير (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) يعطيك الله خيراً مما قُلْت عليه (ما شاء الله

لا قوة إلا بالله) ، وإنِ اعترفت بنعمة الله عليك ورددتَ الفضل إليه سبحانك زادك.

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة]

فقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي (١٥٢)﴾[البقرة] أى: كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألاَّ تنسوها ، أنْ تعيشوا دائماً فى ذكر مَنْ أنعم عليكم ، فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذِّكْر ، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم .

والله سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى:

«أنا عند حُسْن ظنِّ عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خير منه ، وإنْ تقرَّب إلىَّ بشبر تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إلىَّ ذراعاً تقرَّبْتُ إليه باعاً ، وإنْ أتانى يمشى أتيته هرولة» (١) .

هذه هى رغبة الكريم فى أن يعطى بشرط أن نكون أهلاً للعطاء ؛ لأنه يريد أنْ يعطيك أكثر وأكثر .

فقوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي (١٥٢)﴾[البقرة] أى: اذكروا الله فى كُلِّ شىء : فى نعمه ، فى عطائه ، فى سِتْره ، فى رحمته ، فى توبته .

يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن حبيبى رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢ / ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه . قال الترمذى : «حديث حسن صحيح».

أنك إذا ما أقبلتَ على شرب الماء فقسِّمه ثلاثاً : أول جرعة قُلْ باسم الله واشربها ، ثم قُلْ الحمد لله وابدأ شرب الجرعة الثانية ، وقُلْ باسم الله ، وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله ، ثم قُلْ : باسم الله ، واشرب الجرعة الثالثة ، واختمها بقولك الحمد لله (١) .

فما دام هذا الماء فى جوفك فلن تُحدِّثك ذرة من جسدك بمعصية الله ، جرِّبها يوماً فى نفسك ، وقُلْ : باسم الله واشرب وقُل الحمد لله وكرِّرها ثلاثاً ، فإنك تكون قد استقبلتَ النعمة بذكر المنعِم ، وأبعدْتَ عن نفسك حَوْلكَ وقوتك ، وأنهيتَ النعمة بحمد الله.

ولكن ، لماذا الماء ؟ لأن الماء فى الجوف أشبع من أىِّ شىء آخر.

قوله تعالى: ﴿ **وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)** ﴾ [البقرة]

الشكر على النعمة يجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ يزيدك منها ، فشُكْر الله يُذهِب الغرور عن نفسك ، فلا تفتنك الأسباب ، وتقول : أوتيته على علم عندى ، ولا تكُنْ كقارون الذى أخذ نعمة الله ونسبها إلى نفسه ، فصار مفتوناً بما امتلك ، وغرق فى الغرور .

قال تعالى عنه : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨)** ﴾ [القصص]

---

(١) ذكر الإمام أبو حامد الغزالى فى «إحياء علوم الدين» (٢/ ٦) فى آداب الشرب أنه يشرب فى ثلاثة أنفاس ، يحمد الله فى أواخرها ، ويسمى الله فى أوائلها . ويقول فى آخر النفس الأول «الحمد لله» وفى الثانى يزيد «رب العالمين» وفى الثالث يزيد «الرحمن الرحيم».

فإياك أيُّها الإنسان أنْ تغترَّ بالأسباب ، أو أنك بأسبابك أخذتَ غير ما يريده الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدَّر لك ، وكلُّ الأسباب تتفاعل لك بعطاء وتقدير من الله عزوجل .

فإياك أن تنظر إلى الأسباب وتنسى المسبِّب ، لأن الله ملك الأشياء التى تحوزها ، والأدوات التى تحوز بها ، بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك.

فتنبه أيها الغافل ، وإياك أنْ تظن أنَّ الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ، ثم يشاء ألا تأتى بنتائجها ، كمَنْ يضع بذور القطن ـ مثلاً ـ ويحرث الأرض ، ويرويها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول .

لذلك قُلنْا : إنك تُحصِّن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها «بسم الله ، ما شاء الله» ، لتتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عَيْن الواهب حارسة للنعمة التى عندك ، أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك .

وأول الخيبة أنْ تشغلك النعمة عن المنْعِم ، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم هو ثمرة جَهْدك وعملك ، ونتيجة سَعْيك ومهارتك ، فترك الله قارون لعلمه ومهارته بسبب مقالته ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴿٧٨﴾﴾[**القصص**] فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة ، فكانت النتيجة:

﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ**﴿٨١﴾﴾[**القصص**] ولم ينفعه ماله أو علمه .

فإياك أنْ تغتر أو تنأى بجانبك فتنسى حَمْد الله على هذه النعمة ، لذلك أمرنا حين نركب السفن مثلاً أن نقول : «بسم الله مُجريها ومرساها » ؛ لأنك ما أجريتها بمهارتك وقوتك ، إنما بسم الله الذى ألهم ، وباسم الله الذى أعان ،

وباسم الله الذى تابعنى ، ورعانى بعينه ، وما دُمْتَ تذكر المنعم عند النعمة ، وتعترف لصاحب الفضل بفضله يحفظها لك .

أما أنْ تنكرها على صاحبها وتنسبها لنفسك ، فيقول لك : ما دام الأمر كذلك ، فحافظ أنت عليه .

ولذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة]

أى: لا تستروا نِعَم الله ، بل اجعلوها دائماً على ألسنتكم ، فإن كل نعمة من نعم الله لو اسْتُقبلت بقولك : «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» لا ترى فى النعمة مكروهًا أبداً ؛ لأنك حصَّنْتَ النعمة بسياج المنعِم.

أعطيتَ لله حقَّه فى نعمته ، فإنْ لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت مُوجِدها، ونسيتَ المنعِم ـ وهو الله سبحانه وتعالى ـ فإن النعمة تتركك.

١٧ المعركة الخالدة مع الشيطان

حين يستحضر الإنسان صورة المعركة الخالدة بينه وبين عدوه الشيطان ، فإنه يتحفز بكل قواه ، وبكل يقظته ، وبغريزة الدفاع عن النفس وحماية الذات ، يتحفز لدفع الغواية والإغراء ، تلك هي حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه ، وضد هواتفه المستسرَّة في النفس ، وأسبابه الظاهرة للعيان ، إنها حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظة ، ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبداً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٦** ﴾ [فاطر]

الوعد إنْ كان فى خير فهو بشارة بخير يقع ، وإن كان بشرٍّ فهو إنذار بشرٍّ يقع ، ويغلب عليه كلمة «الوعيد» ، ففى غالب الأمر تأتى كلمة «وعد» للاثنين: الخير والشر ، أما كلمة «وعيد» فلا تأتى إلا فى الشر .

والوعد : هو إخبار بشىء سيحدث من الذى يملك أن يُحدِث الشىء.

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب.

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإنْ قلتَ : «آتيك غداً فى المكان الفلانى لأكلمك فى موضوع كذا» فماذا تملك أنت من عناصر هذا الحدث ، إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذى تحدَّد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمره ، والموضوع الذى تريد أنْ تتحدَّث فيه ، قد يأتى لك خاطر ألاَّ تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهَبْ أن كل العناصر اجتمعتْ ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شيء أبداً .

ولذلك يعلِّم الله سبحانه خَلْقه الأدب فى إعطاء الوعود ، التى لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف]

وحين تُقدِّم المشيئة فإنْ حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً ، وهكذا يعلمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم فى نطاق قدراتنا، وقدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث.

أما إذا قال الله سبحانه ووعد فلا رادّ لما وعد به سبحانه ، لأنه منزّه عن أنْ يُخلف الميعاد ، لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبَّى عليه ، ووعده حَقٌّ وثابت .

وانظروا إلى الشيطان يوم القيامة عندما يخطب فيمن اتبعوه :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

فوَعْد الله حَقٌّ ؛ لأنه وَعْد ممَّنْ يملك ، أما وعد الشيطان فقد اختلف ، لأنه وَعْد بما لا يملك ، لذلك هو وعد كاذب ، لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذى لا يتغير .

وحين تَعِد أنت ـ الإنسان ـ إنساناً آخر بخير قادم ، فهل تضمن أنْ تُواتيك ظروفك على أنْ تحقق له هذا الأمر ؟ ولذلك يوصينا الحق سبحانه أن نقول «إن شاء الله» ، وبذلك نردُّ الوعد لله ، فهو وحده الذى يمكنه أنْ يَعِد وينفذ ما يَعِد به.

أما الشيطان فوعده باطل ، والباطل لجلج ، وحين تحكم به الآن تثبت لك الوقائع عكسه ، وتجعلك لا تصدق ما حكمت به .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢٠) ﴾ [النساء]

وهذا يعنى أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لمواليه ، ويخبرهم بشىء يسرُّهم ، فالوعد هو أن يخبر أحد آخر بشىء يسرّه.

والمثال على ذلك نراه فى الحياة العادية ، فالإنسان منا يحب ماله الذى قد جاء بالتعب ، والصدقة فى ظاهر الأمر تُنقِص المال ، فيقول الحق :

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ (٢٦٨)﴾ [البقرة]

لماذا ؟ لأن الشيطان يُوسوس فى صدر صاحب المال قائلاً : إنك عندما تتصدَّق ببعض المال فمالك ينقص ، وويل لمن يرضخ لوساوس الشيطان ؛ لأنه يُورِده موارد التهلكة .

والشيطان أيضاً يُقدِّم الأمانى الكاذبة فى الوساوس ﴿ وَيُمَنِّيهِمْ﴾[النساء] .

ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦)﴾ [الكهف]

المتفاخر يقول : ما دام الله قد أعطانى فى الدنيا ، وما دامت مهمة الله هى

العطاء الدائم ، فلا بُدَّ أنْ يعطينى ربى فى الآخرة أضعاف ما فى الدنيا ، ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد الآخرة ، فماذا كان جزاؤه ؟

لقد رأى انهيار زراعته ، وعرف سوء مصير الغرور ؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢٠)﴾ [النساء]

فما هو الغرور ؟

هناك «غُرور» بضم الغين . و«غَرور» بفتح الغين . والغُرور ـ بضم الغين ـ هو الشىء يُصوَّر لك على أنه حقيقة ، وهو فى الواقع وَهْم . والغَرور ـ بفتح الغين ـ هو من يفعل هذا الأمر .

ولذلك فالغَرور هو الشيطان ؛ لأنه يُزيِّن للإنسان الأمر الوهمى ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب ، فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يُخيَّل إليه أنه يرى ماء.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك : ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ(١) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا (٣٩)﴾ [النور]

وكذلك الغَرور ، حيث يُزيِّن الشيطان شيئاً للإنسان ويُوهمه أنه سيستمتع به ، فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يُفصِّل لنا الحق أعمال الكفار ، فيقول عنها : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

(١) القاع والقيعة: ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . فـ «سراب بقيعة» أى بمكان منخفض مستو مما يظهر فيه السراب عادة . [القاموس القويم ٢/ ١٣٧].

والحق سبحانه يقصُّ علينا قصة عداوة الشيطان لآدم وبنيه منذ بَدْء الخليقة ، فيقول تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء]

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ؛ لأنه سيكون أباً للبشر ، وسوف يُسخّر له الكون كله ، حتى هؤلاء الملائكة سيكونون فى خدمته ، لذلك أمرهم الله بالسجود له سجودَ طاعة وخضوع لما أريده منكم إذن ؛ السجود لآدم ليس خضوعاً لآدم ، بل خضوعاً لأمر الله لهم .

سجد الملائكة الذين شملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى ، ولكن إبليس رفض أنْ يسجد ، وعصى أمر الله ، وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة ، مبرراً أكبر للسجود فما دام قد صدر الأمر إلى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى .

وقد كان إبليس كما جاء فى الأثر يسمى «طاووس الملائكة»[1] ، وكان يزهو بخيلاء بينهم ، وهذه الخيلاء أو الكِبْر هو الذى جعله يقع فى المعصية ؛ ولأن إبليس خُلِق مختاراً ، فقد كان مزهواً باختياره لطاعة الله ، قبل أن يقوده غروره إلى الكفر والمعصية.

ولذلك لم يكَدْ يصدر الأمر من الله بالسجود لآدم حتى امتنع إبليس تكبُّراً منه ، ولم يجاهد نفسه على طاعة الله ، فمعصية إبليس هى معصية فى القمة ؛

(١) قال سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن عباس : كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٨٩).

لأنه ردَّ الأمر على الآمر ، وظن أنه خير من آدم ، ولم يلتزم بطاعة الله ، ومضى غروره يقوده من معصية إلى أخرى ، فطرده الله من رحمته وجعله رجيماً .

ولما عرف إبليس أنه طُرِد من رحمة الله طلب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُبقيه إلى يوم الدين ، وأقسم إبليس بعزة الله أنْ يُغْرى بنى آدم .. حدّد الأماكن التى يأتى منها الإغواء ، فقال : ﴿**ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾**﴾ [الأعراف]

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام (وَمِنْ خَلْفِهِم) أى : من الوراء. و(عَنْ أَيْمانِهِمْ) أى : من جهة اليمين ، و (عَنْ شَمَائِلِهِم) أى : من جهة اليسار . والشىء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعاً هو «الدار الآخرة» .

وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يُشككهم فى حكاية الآخرة ويُشككهم فى البعث ، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مُقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكُّون فى وجود دار أخرى سيُجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته.

والشيطان ـ أيضاً ـ يأتى من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتى من هذه الناحية .

ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً ، وقد كبرت سِنّه، ويُقبِل على الله بشرٍّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير ، لكن إنْ كنت تخاف عليهم حقاً فأمِّنْ عليهم فى يد ربهم ، ولا تُؤمِّن حياتهم فى جهة ثانية.

﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾**﴾ [النساء]

ويأتى الشيطان من اليمين ؛ ليُزهِّد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة ، واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية.

ونلحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ (١٧)﴾ [الأعراف] ، ﴿عَن شَمَائِلِهِمْ (١٧)﴾ [الأعراف] ولم يأتِ بـ «على» لأن «على» فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع.

لقد بلغ الغرور بالشيطان أنْ تخيّل أنه ذكى ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلَّل لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأنْ جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء]

لقد نبهنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو مَنْ يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد النزغ الشيطانى .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩)﴾ [البقرة]

أى : لا تسيروا وراء الشيطان ، فالخطوة هى المسافة بين القدمين عند المشى، أى : بين النقلة والنقلة ، ولا تجعلوا الشيطان قائدكم ؛ لأن الشيطان عداوته لكم مُسبقة ، ويجب أنْ تحتاطوا بسوء الظن فيه ، فهو الذى عصى ربه ، ولا يصح أنْ يُطاع فى أىِّ أمر ، وعداوة الشيطان للإنسان قديمة من أيام آدم.

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ، عكس

آدم الذى قَبِل الله توبته ، وقد أقسم الشيطان بعزة الله لَيُغوينَّ الكل ، واستثنى عباد الله المخلَصين .

لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلِّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم عليه السلام ، ويُعلِّمه أن خواطر الخير من الله ، وخواطر الشر من الشيطان ، فليكُنْ على حذر من خواطره ووساوسه.

وبذلك يُربَّى فى ابنه مناعة إيمانية ، فيحذر كيد الشيطان ونزْغه ، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان ، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء حتى ترسخ فى أذهانهم.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا** (٥٣)﴾ [**الإسراء**] أى: كان ولايزال ، وإلى يوم القيامة بدليل قوله : ﴿**لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ**(١) **ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً** (٦٢)﴾ [الإسراء]

أى: لأتعهدنهم بالإضلال والغواية إلى يوم القيامة .

ويقصُّ علينا الحق سبحانه مقالة الشيطان لربه بعد رفضه السجود لآدم :

﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً** (٦٢)﴾ [الإسراء]

أى: أعلمنى ، لماذا فضَّلته علىَّ ، وكأن تفضيل آدم على إبليس مسألة تحتاج إلى برهان وتبرير ، وكان على إبليس أن ينتظر إجابة هذا السؤال الذى توجَّه به لربه عزوجل ، ولكنه تعجَّل وحمله الغيظ والحسد على أنْ يقول:

---

(١) احتنك فلاناً: استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه . والمعنى: أى لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القويم ١/ ١٧٥].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]

وهذا لأن حقده وعداوته لآدم مُسْبقة فلم ينتظر الجواب.

ومعنى ﴿أَخَّرْتَنِ ﴿٦٢﴾﴾[الإسراء] أخَّرت أجلي عن موعده، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس منفوسة من إنس أو جنٍّ أجلاً معلوماً، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عن أجله، وهذه مبالغة منه في اللدد، والمعاندة، فلم يتوعدهم ويُهددهم مدة حياته هو، بل إلى يوم القيامة، فإنْ كانت البداية مع آدم فلن ينجو ولن تنجو ذريته أيضاً.

فالعداوة بين إبليس وآدم، فما ذنب ذريته من بعده؟ لقد كان عليه أنْ يقصر هذا الحقد وهذه العداوة على آدم، ثم يوصى ذريته بحمل هذا العداء من بعده، إنه الغيظ الدفين الذي يملأ قلبه.

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء]

فاستفزز من استطعت واستخفهم واخدعهم بصوتك ووسوستك أو بصوتك الشرير، سواء أكان هذا الصوت من جنودك من الأبالسة أمثالك، أو من جنودك من شياطين الإنس، الذين يُعاونونك ويساندونك.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء]

أي: صوِّت وصِحْ بهم راكباً الخيل لتفزعهم.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء]

فكيف يشاركهم أموالهم؟ بأن يُزيِّن لهم المال الحرام، فيكتسبوا من الحرام، وينفقوا في الحرام، والمفروض في الأولاد طهارة الأنساب فدَوْر الشيطان أنْ يُفسد على الناس أنسابهم، ويُزيِّن لهم الزنا، فيأتون بأولاد من الحرام. أو: يزين لهم تهويد الأولاد أو تنصيرهم، أو يُغريهم بقتل الأولاد مخافة الفقر أو غيره، هذا من مشاركة الشيطان في الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: منِّيهم بأمانيك الكاذبة، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة]

وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء]

أي: لا يستطيع أنْ يغرَّ بوعوده إلا صاحب العزَّة والغفلة، ومنها الغرور، أي: يُزيِّن لك الباطل في صورة الحق، فيقولون: غَرَّه. وأنت لا تستطيع أبداً أن تُصوِّر لإنسان الباطل في صورة الحق إلا إذا كان عقله قاصراً غافلاً؛ لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من الباطل، إنما تأخذه على غِرَّة من فكره، وعلى غفلة من عقله.

لذلك، كثيراً ما يخاطبنا الحق سبحانه بقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص]، ﴿أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[الأنعام]، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ﴿٨٢﴾﴾[النساء]. وينادينا بقوله تعالى: ﴿يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٠﴾﴾ [الطلاق]

وهذا كله دليل على أهمية العقل، وحثٌّ على استعماله في كل أمورنا، فإذا سمعتم شيئاً فمَرروه على عقولكم أولاً، فما معنى أنْ يطلب الله منّا ذلك؟ ولماذا يُوقظ فينا دائماً ملَكة التفكير والتدبر في كل شيء؟

لا شكَّ أن الذى يُوقظ فيك آلة الفكر والنقد التمييز ، ويدعوك إلى النظر والتدبُّر ، واثق من حُسْن بضاعته ، كالتاجر الصدوق الذى يبيع الجيد من القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته فى ثقة ، ويدعوك إلى فحصها ، وقد يشعل النار ليريك جودتك وأصالتها .

ولو أراد الحق سبحانه أنْ يأخذنا هكذا على جهل وعمىً ودون تبصُّر ما دعانا إلى التفكُّر والتدبُّر.

وهكذا الشيطان لا يُمنِّيك ولايُزيِّن لك إلا إذا صادف منك غفلة ، إنما لو كنت متيقظاً له ، ومستصحباً للعقل ، عارفاً بحيله ما استطاع إليك سبيلاً ، ومن حيله أنْ يُزيِّن الدنيا لأهل الغفلة ويقول لهم: إنها فرصة للمتعة فانتهزها ، وخُذْ حظك منها فلن تعيش مرتين ، وإياك أنْ تُصدِّق بالبعث أو الحساب أو الجزاء.

وهذه وساوس لا يُصدِّقها إلا مَنْ لديه استعداد للعصيان ، وينتظر الإشارة مجرد إشارة فيطيع ويقع فريسة لوعود كاذبة ، فإنْ كان يوم القيامة تبرأَ إبليس من هؤلاء الحمقى ، وقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(١) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴿٦﴾﴾ [فاطر]

(١) المصرخ: المغيث المنقذ من يستصرخه. والمصرخ الذى يزيل سبب الصريخ وسبب الصراخ. واستصرخه : استغاث به. {القاموس القويم ١/ ٣٧٣}.

ثم يضيف الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر]

وكلمة «حزب» معناها: جماعة التفَّ بعضهم مع بعض على منهج يروْن فيه الخير لهم.

ولقد حدَّثنا الحق سبحانه عن حزب الله ، فقال : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة]

فحزب الله فى أىِّ وضع ، وفى أىّ تكوين ، ولأية غاية هو الحزب الغالب.

١٨ الله غنى عن خَلْقه

الناس في حاجة إلى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله ، وأن الله غني عنهم كل الغنى وأنهم حين يدعون إلى الإيمان بالله وعبادته وحمده على آلائه فإن الله غنى عن عبادتهم وحمدهم ، وهو المحمود بذاته ، وأنهم لا يُعجزون الله ولا يعزون عليه ، فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتى بخلق جديد من جنسهم أو من غيرهم فإن ذلك على الله يسير.

يقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر]

إن الله سبحانه غنىٌ بقدرته المطلقة ، غنى وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسْخُون بما أفاء الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، وهو سبحانه غنىٌ عن العباد وله كل الملك .

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج]

فما فى السماوات وما فى الأرض ملْك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشىء ، إنما خلقها لمنفعة خَلْقه ، وهو سبحانه غنىّ عنها ، وغنى عنهم ، وهو غنى محمود ، لأن غناه لا يعود عليه ، إنما يعود على خَلْقه ، فيحمدونه لغناه ، لا يحقدون عليه.

وصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق وبصفات الكمال خلق ، وملكيته تعالى للسماوات وللأرض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملّكنا الله له ، فهو الغنىُّ سبحانه ، المالك لكل شىء ، وما ملّكنا إلا من باطن مُلْكه .

ومن العجيب أن الحق سبحانه يُملِّك خَلْقه من مُلْكه ، فمن استخدم النعمة فيما جُعلت له ومَنْ أعطى غير القادر من نعمة الله عليه يشكر الله له ، وهى فى الأصل نعمته ، ذلك لأنك أنت عبده ، وقد استدعاك للوجود ، وعليه سبحانه أنْ يتولاَّك ويرعاك .

فإن احتاج غير القادر منك شيئاً ، قال تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حسنا(٢٤٥)** ﴾ [البقرة]

فاعتبره قرضاً وهو ماله ، لكنه ملّكك إياه ، لذلك لا يسلبه منك ،إنما يأخذه قرضاً حسناً ، ويضاعفه لك ، لأنه غنى حميد .

أى: محمود ، ولا يكون الغِنَى محموداً إلا إذا كان غير الغنى مستفيداً من غِنَاه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥)** ﴾[الحج] فما فى السماء وما فى الأرض ملْك له سبحانه ، لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه ، فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يجعلها الله لنا ، ويُملِّكنا إياها؟

نقول: لأن ربك يريد أنْ يُطمئنك أنه لا يعطيها لأحد أبداً ، وستظل مِلْكاً لله

وأنت تنتفع بها ، وهل تأمن إنْ ملّكها اللهُ لغيره أنْ يتغيّر لك ويحرمك منها ؟ فأمْنُك فى أن يظل الملْك لله وحده ؛ لأنه ربُّك ومُتولّيك ، ولن يتغير لك ، ولن يتنكر فى منفعتك.

ويقول الحق سبحانه فى مجال الإنفاق فى سبيل الله: ﴿ **هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)** ﴾ [محمد]

فأنتم تُدْعَون للإنفاق فى سبيل الله ، فى كل ما يحبه الله من خَلْقه لخلقه ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أنْ يغنى جميع الناس ، ولا يجعل أحداً محتاجاً لأحد ، ولكنه يريد أن يصل القلوب ، بأنْ يعطى لواحد ولا يعطى للآخر ، حتى إذا أعطى هذا الغنى للفقير ، فرح الفقير ودعا له بالخير والبركة ، ولا يحقد عليه .

والغنى يعطيه عن حُبٍّ ورضا دون أنْ يحتقره ويستهين به وبضعفه ، لأنه يُقدِّر أنه قد يضعف يوماً أو يعجز عن الكسب مثله ، فأنت حين تعطى الضعيف ، تضمن أنك لو ضعفت سيعطيك المجتمع الإيمانى.

والذى يبخل هو صاحب النظرة الضيقة ، الذى لا ينظر إلى عطاء الله فى الآخرة ، ومضاعفة ثواب المقرضين والمتصدقين .

ولذلك حين يأتى إنسان ما ليقترض منك مالاً ، وتعطيه هذا القرض لا تظن أن هذا القرض نقص من عندك ، مثلما تأتى لتزرع الأرض بالقمح ، فتذهب إلى مخزنك الذى فيه عشرة أرادبّ ، وتأخذ منه أردباً من العشرة لترميه فى الأرض لتزرعها بالقمح ، فأنت لا تقول إنك نقصت القمح أردباً ، لأنك رميته فى الأرض لتعطيك أضعافه .

فالذى يحسبها بحقٍّ لا ينظر إلى ما سيخرج منه ، ولكن ينظر إلى ما سيعود عليه بعد ذلك ، وما دام الله سيضاعفه له فهو أفضل من أىِّ تجارة أو أىِّ معاملة مع أىٍّ بنك ، لأن أى معاملة بشرية لا تضاعف لصاحبها ماله مثلما يضاعف الحق سبحانه لعباده ، لأن الله تعالى يضاعف الحسنة إلى سبعين ضعفاً لقوله تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]

فالذى يحسبها بهذه الصورة لا بُدَّ أن يُقبِل على الإنفاق فى سبيل الله ، ولينظر إلى مَنْ يدعوه إلى الإنفاق .

إنه الذى خلقهم من عدم ، وأمدَّهم من عُدْم ، وخلق لهم قبل أن يخلقهم، وأعطاهم أسباب القوة ليتفاعلوا مع الأرض فينتجوا ، ومع الصناعات فيصنعوا ، ويكون عندهم دخل يكفيهم ، ويكفى المحتاجين ؛ لأن الله يريد من المؤمن أن يعمل على قدْر طاقته وعلى قدرْ حاجته ؛ لأن الإنسان لو عمل على قدر حاجته وحاجة مَنْ هو مسئول عنهم سيموت العاجز عن العمل جوعاً.

إذن: تأخذ من القادر زكاةً لغير القادر ، فهو حقٌّ العاجز عند مَنْ يقدر على العمل والكسب ؛ لأن الأيام دُوَل ، فالقوىُّ الذى يعمل وينتج ، ويكون عنده مال لا يضمن أنْ يظل كذلك ، بل من الممكن أنْ يصيبه عجز أو ضعف لأنه ابن أغيار ، فإذا عجز أو ضعف ، فكيف يعيش ؟

فأنت إذا نظرت إلى العاجز الضعيف الذى ليس عنده ما يعيشه وساعدته أمنت نفسك إنْ حصل لك هذا بأن إخوانك المؤمنين يعاونونك ، فإذا كان الله هو الذى دعا إلى النفقة ، ودعوته إليها لم يَخْلُ منها واحد أبداً ، لقوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة]

فحتى الذين لا يجدون ما ينفقون كلَّفهم الله بأنْ ينصحوا لله ورسوله ، فالذى لا يقدر وليس عنده مال ينفقه يعظ مَنْ عنده المال ، وإنْ لم يفعل ذلك يأثم.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى استدعى الخَلْق جميعاً للوجود ، وهو الذى ابتلى قوماً بالضعف فلا يستطيعون أنْ يعملوا ، فلو لم يهىء لهم مَنْ يستطيع أنْ يعطيهم لتذمروا على الخالق وتمردوا على الخَلْق ، لكن إذا رأوا الواجد ينفقه عليهم سيقولون : إن يد الله ممدودة بالأمر له ، فكأنها يَدُ الله تعطيهم.

فالإنسان يجب أنْ يعمل على قدر طاقته وليس على قدر حاجته ، ويأخذ من عمله ما يكفيه وأهله ، وما زاد عليه أنْ يوزعه على المحتاجين ولا يكنزه ، لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]

والبشرى بالعذاب هنا تهكُّم بهؤلاء البخلاء الذين يكنزون المال ، ويمنعونه من التداول ، ولا ينفقونه فى سبيل الله ، فالذى جعل يده تنقبض عن النفقة أن نفسه شحيحة ، فالذى يبخل لا يبخل على المحتاج ، وإنما يبخل على نفسه ، لماذا ؟ لأنك حرمت مضاعفة ما تنفق عند الله ، فتكون قد بخلْتَ على نفسك ؛ لأنك حرمت نفسك خيراً كثيراً كان سيعطيه الله لك.

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]

أى: أنه سبحانه غنِىٌّ عن خَلْقه ، وخزائنه لاتنفد ، ولكنه يريد أنْ يكون بين خَلْقه رحمة ومودَّة ومعونة حتى لا يتكبر مَنْ عنده ، ولا يحقد مَنْ ليس عنده .

فالفقير حين يجد الغنى يأتى إليه ويعطيه مما أعطاه الله يفرح ويدعو له ، ويحمد الله على ذلك ، فالغنى كله جاء من الحق سبحانه وتعالى.

ومعنى أن الله غنىٌّ أنه ليس فقيراً ، ولا تنفد خزائنه ، لا كما زعم اليهود فى قولهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران]

فعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيرين ، قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له : «أشيع» ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاء بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل.

فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، إنه إلينا لفقير ، ما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا ، وإنَّا عنه لأغنياء ولو كان عنا غنيّاً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الرب .

فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده ، لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربتُ عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إنْ كنتم صادقين .

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد ، أبصر ما صنع بى صاحبك ، فقال ﷺ : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟ » [1] فقال :

(١)أورده ابن كثيرفى تفسيره (١/ ٤٣٤) وعزاه لمحمد بن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس.

يا رسول الله ، إن عـدو الله قال قـولاً عظيمـاً ، يزعم أن الله فقيـر ، وأنهم عنه أغنياء ، فلمـا قال ذلك غضبتُ لله ممـا قال: فضربت وجـهه ، فجحـد فنحاصُ ذلك ، وقال:ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران]

هؤلاء لم يفطنوا إلى سرِّ التعبير الجميل فى قوله سبحانه: ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴿١١﴾﴾ [الحديد]

فإن هذا القول هو احترام من الحق سبحانه لحركة الإنسان فى التملُّك ، فهو سبحانه يريد أن يغرى المتحرك بزيادة الحركة ، ويحمل غير المتحرك على أنْ يتحرك ، فإنْ طلب سبحانه شيئاً من هذا المال فهو لا يقول للإنسان: أعطنى ما أعطيتُ لك.

بل كأنه سبحانه يقول: إننى سأحترم عرقك ، وسأحترم حركتك ، وسأحترم فكرك ، وسأحترم جوارحك وطاقاتك وكل ما فيك ، فإنْ أخذتُ منك شيئاً فلن أقول لك أعطنى ما أعطيتُ لك ، لكن أقول لك: أقرضها لى ، وإنْ أقرضتها فسوف تقرضها لا لأنتفع بها ، ولكنها لأخيك ، وقد اقترض من القادر فيما بعد ، وذلك لك أنت إذا أصابتك الحاجة ، لماذا؟

لأننى أنا الله الذى استدعيتُ خَلْقى إلى الوجود ، وما دُمْتُ أنا الله الذى استدعيتُ الخَلْق إلى الوجود فأرزاقهم مطلوبة منى.

فحين يقترض الحق ـ سبحانه وتعالى ـ من بعض خَلْقه لبعض خَلْقه ، فهو سبحانه لا يتراجع فيما وهب ، بل يقول جل وعلا: ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد]

لكن اليهودى لم يأخذ المسألة بهذا الفهم ، لكنه أخذها بغباء المادة فقال : إن الله فقير ونحن أغنياء.

ويقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة]

ففى ذلك تنبيه للقادر الذى حرم الفقير ، وكأنه يقول له: إنما حرمت نفسك أيها القادر من أجر الله ، إنك أيها القادر حين تحرم فقيراً فأنت المحروم ؛ لأن الله غنى عنك.

إن الله غنىٌّ بقدرته المطلقة ، غنىٌّ وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاءالله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

والحق سبحانه غنى عن جميع خَلْقه ، وغنى عن عبادتهم وطاعتهم له ؛ ولذلك قال تعالى بعد فرض حج البيت الحرام ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ [آل عمران]

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غنى عنه ؟ وقال : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ [آل عمران]

ونقول: إن الله غنى عن كل مخلوقاته ، و إياك أنْ تفهم أن الذى لم يكفر وآمن ، وأدَّى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ، إن الله غنى عن الذى أدَّى ، وعن الذى لم يُؤدِّ ، إياك أن تظن أن مَنْ أدَّى قد صنع لله معروفاً ، أو قدَّم لله يداً.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾[آل عمران] عمَّنْ لا يفعل ، وعمن يفعل.

فإيمانكم لن يزيد الحق سبحانه شيئاً ، ولن يضيف هذا الإيمان منهم ومعهم أهل الأرض كلهم لِمُلْكه شيئاً ؛ لأن مُلْك الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشىء عن كمال موجود.

ولذلك قال سليمان عليه السلام عندما رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده بعد أن آتاه به مَنْ عنده علم من الكتاب قبل أنْ يرتدَّ إلى سليمان طَرْفه:

﴿ **قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾** ﴾ [النمل]

فقوله تعالى: ﴿**وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴿٤٠﴾**﴾ [النمل]

أى: أن الله تعالى لا يزيده شكرنا شيئاً، فله سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد، فمَنْ يشكر فإنما يعود عليه، وهو ثمرة شكره.

ومَنْ جحد النعمة ولم يشكر المنعِم فإن ربى غنى عن شكره كريم، أى: يعطى عبده رغم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة، لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعَدُّ، وهذا من حلمه تعالى ورأفته بخَلْقه.

ويقول الحق سبحانه عن غنَاه تعالى، واستغنائه عما يفتقر إليه عباده: ﴿**قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِىُّ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴿٦٨﴾**﴾ [يونس]

فالله سبحانه مُنزَّه عن كل ما تعرفه من الأغيار، فله تنزيه فى ذاته، فلا ذات تشبه ذاته، ومُنزَّه فى صفاته، فلا صفة تشبه صفته، ومنزَّه فى أفعاله، فلا فِعْل يشبه فعله.

وحتى نضمن هذه المسألة لا بُدَّ أنْ يكون الإله واحداً، ولكن بعضًا من القوم جعلوا لله شركاء، ومَنْ لم يجعل له شريكاً توهم أن له ابناً وولداً.

ونقول لهم: إن كلمتكم ﴿**اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٦٨﴾**﴾[**يونس**] ترد عليكم؛ لأن معنى اتخاذ الولد أن الألوهية وُجِدت أولاً مستقلة، وبهذه الألوهية اتخذ الولد.

والكمال كله لله سبحانه ، فهو كمال ذاتيٌّ ، ولذلك يأتى فى وسط الآية ، ويقول تعالى :﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴿٦٨﴾﴾ [يونس]

فهو الغنى أى: المستغنى عن معين ، كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ، فلا يحتاج إلى ابن مثل البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء ، كما يقول الشاعر :ابنى يا أنا بعدما أقضى .

ويُقال «مَنْ لا ولد له لا ذِكْر له» كأن الإنسان لما علم أنه يموت لا محالة أراد أنْ يستمر فى الحياة فى ولده ؛ ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة .

والجاهل هو مَنْ يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ، لأن البنت لن تحمل الاسم لمن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجدُّ أنه ضمن الذِّكْر فى جيلين.

إذن: فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنىٌّ عن الاستعانة ، وغنىٌّ عن الاعتداد ؛ لأنك تعتدُّ بمن هو أقوى منك ، وليس هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامتداد ؛ لأنه هو الأول وهو الآخر، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على أىِّ لون من ألوانها.

لذلك يقول الحق سبحانه مردفاً لتلك الفكرة (سبحانه) ؛ لأنها تقطع كلَّ احتمالات ما سبقها ، ويُتبع ذلك بقوله:﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴿٦٨﴾﴾[يونس] لأنه غنىٌّ عن اتخاذ الولد ، وغنىٌّ عن كلِّ شىء . وقوله (سُبْحَانَهُ) : تنزيه له والتنزيه : ارتفاع بالمنزَّه عن مشاركة شىء له فى الذات أو الأفعال.

وإذا ورد شيء هو لله وَصْف ، ولخَلْقه وصف ، فإياك أنْ تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة ، فإنْ قابلتَ غنياً من البشر فالغِنَى فى البشر عَرَض ، أما غِنَى الله تعالى ففى ذاته سبحانه.

وأنت حَيٌّ ، والله سبحانه حَيٌّ ، ولكن أحياتك كحياته سبحانه؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم.

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتىٌّ ، ووجودك وجود عَرَضِىٌّ.

والله سبحانه كما هو الغنى ، فإنه ـ تبارك وتعالى ـ المغنى ، فهو مُغْنِ عباده، وساق إليهم أرزاقهم ، فأغناهم عما سواهم ، كقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾**﴾ [النجم]

أى: جعل للمرء غَبَاءً بما يملك عما فى يد الغير ، وأقنى ، أى: جعل له رِضاً بما أعطاه ، فنجد أناساً رزقهم ضيق ، ولكنهم راضون وسعداء. إذن: الغنى بسعة المال يساويه فى رضا النفس القناعة والرضا.

ويقول تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾**﴾ [النور]

فالفقر قد يكون سبباً فى عدم الإقبال على البنت ، أو عدم إقبال أهل البنت على الزوج ، لكن كيف يتخلى الله عنَّا ، ونحن نتقيه ونقصد الإعفاف والطُّهر؟

لا يمكن أنْ يضنَّ الله على زوجيْن التقيا على هذه القيم واجتمعا على هذه

الآداب ، ومَنْ يُدريك لعل الرزق يأتى للاثنين معاً ، ويكون اجتماعهما فى هذه الرابطة الشرعية هو باب الرزق الذى يفتح للوجهين معاً؟

﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾[النور] ، فعطاء الله دائم لا ينقطع ؛ لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص ، والإنسان يمسك عن الإنفاق ؛ لأنه يخاف الفقر ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيعطى العطاء الواسع لأن ما عنده لا ينفد.

فالمغنى: معطى الغِنَى لعباده ، وهو سبحانه مُغْنٍ عباده بعضهم عن بعض ، فالحوائج لا تكون على الحقيقة إلا لله سبحانه .

ومَنْ شهد محلَّ افتقاره إلى الله عزوجل فرجع إليه بحُسْن العرفان أغناه الله من حيث لا يحتسب ، وأعطاه من حيث لم يرتقب.

وإغناء الله تعالى عباده على قسمين:

ـ منهم مَنْ يُغنيه بتنمية أمواله.

ـ ومنهم مَنْ يغنيه بتصفية أحواله ، وهذا هو الغِنَى الحقيقى فلا مُغنى ولا كافى على الإطلاق إلا الله ، وغِنَاه سبحانه يكون فى الدنيا والآخرة.

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [فاطر]

وذلك مثل قول الحق سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [النساء]

فلا شىءَ يتأبَّى على مرادات الحق ولا على قدراته ، ويقول تعالى فى موقع آخر: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المعارج]

فلا أحدَ يسبق إرادة الله أو مشيئته.

ويقول تعالى مؤكداً أن قدرته على المجيء بخَلْق جديد ليست مسألة مستحيلة: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم]

والشيء العزيز هو الشيء الممتنع، والله سبحانه لا يُغْلَب، وقد بيَّن لنا في جزئيات الحياة أنه يذهب بنبات، ويأتي بنبات آخر، ويذهب بحيوان، ويأتي بحيوان آخر، وكذلك يذهب بالجماعة من البشر، ويأتي بغيرهم.

فالله تعالى قادر على أنْ يذهب بمَنْ يمنع الخير عن الناس، ويأتي بمَنْ هو أفضل منه؛ لأن الإنسان كالموظف عند الله تعالى، إنْ عصى أمره استبدله بمَنْ هو خير منه.

١٩ أكرمكم أتقاكم

يأيها الناس ، يأيها المختلفون أجناساً وألواناً ، المتفرقون شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، والذى يناديكم هو الذى خلقكم من ذكر وأنثى ، وهو يطلعكم علي الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل ، إنها ليست التناحر والخصومة ، إنما هو التعارف والوئام.

يقول الحق سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾**﴾ [الحجرات]

أول شيء فى التوازن الاجتماعى أننا جميعاً عندالله سواء ، وكلنا عبيده ، وليس منّا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نسب ، فالجميع عند الله عبيد كأسنان المشْط، لا فرْقَ بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وإنْ تفاوتتْ أقدارنا فى الحياة فهو تفاوت ظاهرى شكلى ، لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً: هذا غنى ، وهذا فقير.

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت ، ويدعون غيرها من النواحى الأخرى ، وهذا لا يصح ، بل انظر إلى الجوانب الأخرى فى حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة فى النفس الإنسانية ، ولو سلكت هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، وأن المحصلة واحدة.

وما دام المجتمع الإيمانى على هذه الصورة فلا يصح لأحد أنْ يرفع رأسه فى المجتمع ليعطى نفسه قداسة أو منزلة فوق منزلة الآخرين.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿**وَلا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾**﴾ [الإسراء]

فالمرح هو الفخر والاختيال ، أو البطر والتعالى ؛ لأن الذى يفخر بشىء ويختال به ويظن أنه أفضل من غيره يجب أن يضمن لنفسه بقاء ما افتخر به ، بمعنى أنْ يكون ذاتياً فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أنْ جعل كل ما يمكن أنْ يفتخر به الإنسان هبةً له ، وليست أصيلة فيه.

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدْم هى هبة يمكن أنْ تسترد فى يوم من الأيام ، وكيف الحال إذا تكبرتَ بمالك ، ثم رآك الناس فقيراً ، أو تعاليتَ بقوتك ثم رآك الناس عليلاً.

إذن:فالتواضع والأدب أَلْيَق بك ، والتكبُّر والتعالى لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى ، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك ؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى ، وكوْن الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا.

ومَنْ أحبَّ أنْ يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه ، فلينظر إلى العبادات ، ففيها استطراق العبودية فى الناس ، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية : الغنى والفقير ، الرئيس والمرؤوس ، الوزير مثلاً والخفير.

الكل راكع أو ساجد ، الكل خاضع لله ، مُتذلّل لله ، فقير لله ، الكل عبيد الله

بعد أنْ خلعوا أقدارهم عندما خلعوا نعالهم ، ففى ساحة الرحمن يتساوى الجميع ، وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح فى مناسك الحج.

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف ، ولا يرى غضاضة فى أنْ يراه مرؤوسه وهو فى هذا الموقف وفى هذا الخضوع والتذلل ، لماذا ؟ لأن الخضوع هنا والتذلل لله ، وهذا عَيْن العزة والشرف والكرامة.

فمن الأساسيات التى نصلح بها ونرث الأرض أنْ ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عزَّ وجلَّ ، وليس منَّا مَنْ بينه وبين الله قرابة.

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا فى إتقان العمل ، فقيمة كل امرىء ما يُحسنه.

والحق سبحانه حين يخاطب الناس جميعاً يدعو إلى الإيمان بإله واحد ، وحين يخاطب المؤمنين يدعوهم إلى حكم من أحكام الله ؛ لأن الله لا يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

فالله لا يُكلِّف الكفار ، إنما يقول لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴿١٣﴾﴾[الحجرات] حتى يلفتهم إلى عظمة الحق حتى يؤمنوا بالحق ، فإنْ آمنوا بالحق الذى هو إله واحد وقادر وقيوم وحكيم أتت التكاليف.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات]

فلا بُدَّ فى التناسل والتكاثر من وجود الاثنين : الذكر ، والأنثى . فالذكر بمفرده لا يصلح ، وكذلك الأنثى.

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان]

فمن الماء خلق الله البشر ، وهم قسمان: ذكور وإناث ، فكلمة (نسباً) تعنى: الذكورة (وصِهْراً) تعنى : الأنوثة ؛ لأن النسب يعنى انتقال الأدنى من الأعلى ذكورة ، فيظل الإنسان فلان بن فلان بن فلان ... إلخ .

فالنسب يأتى من ناحية الذكورة ، أما الأنوثة فلا يأتى نسب ، إنما مصاهرة فمن عظمة الخالق ـ عز وجل ـ أن خلق من الماء هذين الشيئين ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة]

وقد توصَّل العلماء مؤخراً إلى أن بويضة الأنثى لا دَخْلَ لها فى نوع الجنين ما هى إلا حاضنة للميكروب الذكرى الآتى من منىّ الرجل .

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة]

فالذكر والأنثى كلاهما من المنىّ ، فالحيوان المنوى يخرج من الرجل ، منه ما هو خاص بالذكورة ، ومنه ما هو خاص بالأنوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذى يستطيع تلقيح البويضة.

وهذه الظاهرة واضحة فى النحل ، حيث تضع الملكة البيض ، ولا يُخصِّبها إلا الأقوى من الذكور ؛ لذلك تطير الملكة على ارتفاعات عالية ، لماذا؟ لتنتخب الأقوى من الذكور .

كذلك الميكروب ينزل من الرجل ، والأقوى منه هو الذى يستطيع أنْ يسبق إلى بويضة المرأة ، فإنْ سبق الخاص بالذكورة كان ذَكراً ، وإنْ سبق الخاص بالأنوثة كان أنثى .

والحق سبحانه يقول:

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

وبهذه الآية الكونية فى خَلْق الإنسان نردُّ على الذين يحلو لهم أنْ يقولوا : إن الإنسان خُلِق صدفة ، فإذا كان الإنسان ذكراً وأنثى بينهما مواصفات مشتركة وأجهزة ومُقوِّمات واحدة ، إلا أن الذكَر يختلف فى الجهاز التناسلى وكذلك الأنثى ، فهل يُردّ هذا إلى الصُّدْفة؟

ومعلوم أن الصدفة من أعدائها الاتفاق ، فإذا جاء الذَّكَر صدفة ، وجاءت الأنثى كذلك صدفة ، فهل من الصدفة أنْ يلتقيا على طريقة خاصة ، فيثمر هذا اللقاء أيضاً ذكورة وأنوثة؟

إذن: المسألة ليست مصادفة ، إنما هى غاية مقصودة للخالق عز وجل.

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨** ﴾ [السجدة]

فالإنسان من نطفة ، ومن علقة ، ثم مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة .

والحيوان المنوىّ المسمّى «نطفة» هو الذى يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شأن بهذا التحديد ، وكأن فى ذلك إشارة إلى مهمة المرأة كسكن ، لأن البويضة تتلقّى الحيوان المنوىّ وتحتضنه ، ليكتمل النمو إلى أنْ يصير كائناً بشرياً.

﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤** ﴾ [المؤمنون]

لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله فى خَلْق الإنسان لا تملك إلا أنْ تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .

لذلك يروى أن رسول الله ﷺ حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فقال ﷺ للكاتب: اكتبها فقد نزلت[1] ؛ لأنها

(١) أثر عمر : أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبى الخليل أن رسول الله =

انفعال طبيعي لقدرة الله ، وعجيب صُنْعه ، وبديع خَلْقه ، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربى وبين أسلوب القرآن الذى جاء بلسان القوم.

والحق سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً (١)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه خلق الذكَر وخلق الأنثى وهى من جنسه ، ولكنها تختلف معه فى النوع ، بحيث إذا التقيا معاً أنشأ الله منهما رجالاً ونساء ، إذن : فهى عملية مقصودة وعناية وغاية وحكمة .

وبثَّ ، أى نشر ؛ لأن الخَلْق يجب أنْ ينتشروا فى الأرض ، كى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرض جميعاً . والنشر معناه تفريق المنشور فى الحيِّز فهناك شيء مطوى ، وشيء آخر منشور ، والشيء المطوى فيه تجمُّع ، والشيء المنشور فيه تفريق وتوزيع .

إذن : فحيِّز الشيء المتجمع ضيِّق ، وحيِّز الشيء المبثوث الواسع ، معناه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يقول: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا (١)﴾ [النساء] أى : من آدم وحواء ﴿ رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً (١)﴾ [النساء] واكتفى بأن يقول «نساء» ولم يقل: كثيرات ، لماذا ؟

لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقلّ فى العدد من الأنوثة ، وأنت إذا نظرتَ مثلاً فى حقل فيه نخل ، تجدكم ذكراً من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين ..

= ﷺ قال: «والذى نفسى بيده ، إنها ختمت بالذى تكلمت يا عمر» . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٩٢].

إذن: القلة فى الذكورة مقصودة ؛ لأن الذَّكَر مُخصِّب ، ويستطيع الذَّكَر أن يُخصِّب آلافاً . فإذا قال الله : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ①﴾[النساء] فالذكورة هى العنصر الذى يُفترض أنْ يكون أقلَّ كثيراً ، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ لا بُدَّ أن يكون أكثر .

والقرآن يأتى لينبهك إلى المعطيات فى الألفاظ؛ لأن المتكلم الله ، ولكن إذا نظرت لقوله ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا ①﴾[النساء] أى: من آدم وحواء ، وهما اثنان ﴿رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ①﴾[النساء] فتكون جَمْعاً ، وهذا ليدلك على أن المتكاثر يبدأ بقلة ، ثم ينتهى بكثرة.

فعندما يقول الحق: إنه خلق آدم وحواء ، وتحاول أنْ تُسلسل العالم كله سترجعه لهما ، وما دام التكاثر ينشأ من الاثنين ، فمن أين جاءا ؟

الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ⑬﴾ [الحجرات] ، وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء ، وكان من الضرورى أن تأتى هذه الآية كى تحلَّ لنا اللغز فى الإحصاء ، وكلما أتى الزمن المستقبل كَثُر العالم ، وكلما ذهبنا إلى الماضى قَلَّ التعداد إلى أنْ يصير وينتهى إلى اثنين.

وإياك أنْ تقول: إلى واحد ؛ لأن واحداً لا يأتى منه تكاثر ، فالتكاثر يأتى من اثنين ، ومن أين جاء الاثنان ؟لا بُدَّ أن أحداً خلقهما ، وهو قادر على هذا.

ويُعلمنا الله ذلك ، فيقول : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ①﴾ [النساء]

ونأخذ من «بثَّ» الانتشار ، ولو لم يَقُلْ الله هذا لكانت العقول الحديثة تضل وتقع فى حيرة ، وتقول : نسلسل الخلْق حتى يصيروا اثنين ، والاثنان هذان ، كيف جاءا ؟

إذن: لا بُدَّ أن نؤمن بأن أحداً قد أوجدها من غير شيء ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً (١)﴾[النساء] لأن النشر فى الأرض يجب أن يكون خاصاً بالرجل ، فالحق سبحانه يقول : ﴿فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ (١٠)﴾ [الجمعة]

والحق يقول : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا (١) وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ (١٥)﴾ [الملك]

والأنثى تجلس فى بيتها تديره ؛ لتكون سَكَناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك فى هذا الكون ، وهى بذلك تؤدى مهمتها .

الرجال الكثير والنساء هؤلاء تفرقوا وصاروا شعوباً وقبائل ، مثلاً شعب العرب ، وشعب الفرس ، وشعب الرومان ، هذه الشعوب انقسمت قبائل .

والقبائل انقسمت إلى بطون ، والبطون انقسمتْ إلى أفخاذ ، والأسرة الواحدة رجل وامرأة يُخلِّفون عدداً من الأولاد لا تترك الأولاد بدون اسم ، بل لا بُدَّ من وضع اسم لكل واحد حتى نميز بينهم .

إذن: فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ خلقنا شعوباً ، لماذا؟ حتى نتعارف لأن كل واحد له مصالح تجعلكم مضطرين أنْ تتعارفوا فيه أشياء ليست موجودة عندكم ولكنها موجودة عند غيركم.

فالحق سبحانه قد وزَّع أسباب الفضل فى الخَلْق ، فأوربا مثلاً التى عندها

(١) مناكب الأرض : جبالها . وقيل: طرقها. وقيل : جوانبها . قال الأزهري : وأشبه التفسير والله أعلم تفسير من قال: فى جبالها ؛ لأن قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً (١٥)﴾[الملك] معناه: سهَّل لكم السلوك فيها ، فأمكنكم السلوك فى جبالها ، فهو أبلغ فى التذليل. [لسان العرب ـ مادة : نكب].

كثير من أسباب حضارة الدنيا تجدها تحتاج لأسباب حضارة الصحراء وجعلها مُسخرة لجبال الصحراء لتستفيد من الأحجار والبترول وغير ذلك.

إذن: الله وزَّع أسباب الفضل فى الدنيا ، كما وزع فى الناس أسباب الفضائل المتكاملة وليست المتعاندة .

ومعنى ﴿**لِتَعَارَفُوا**﴾ أى: أن يكون لكل منَّا اسم يُعرف به عند الآخرين ، وفى حياتنا العادية ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد رجلاً عنده أولاد كثيرون ، لذلك يُطلق على كل ابن اسماً ليعرفه المجتمع به .

والعجيب فى هذه الآية الكريمة﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴿١٣﴾﴾ [الحجرات] أننا نجد كلمة ﴿**شُعُوبًا**﴾ مُذكَّرة ، وكلمة ﴿**قَبَائِلَ**﴾ مؤنثة . إذن : فلا تمايزَ بالأحسن ، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف .

والشعوب والقبائل التى قررها الحق فى خَلْقه هى مصدر من مصادر التكامل والتعارف ، وبعد أنْ تقرر ذلك يأتى الحق سبحانه ليحذر من تمييز الشعوب ، بعضها على بعض ، الله خلقنا مختلفين لنتعارف ، وليس الاختلاف سبباً من أسباب التمييز ، لماذا ؟ لأن هناك شيئاً تتميز به أشخاص الشعوب ، وهو ميزان الله فى تمييزه بين الناس.

﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١٣﴾**﴾ [الحجرات]

ويقول الحق سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾**﴾ [آل عمران]

فالمؤمن الحق هو مَنْ يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر والجبروت وغيرها ، وكذلك اتقوا النار ، فإنها من جنود صفات جلال الله.

فحين يقول الحق:(اتقوا النار) أو (اتقوا اللـه) فالمعنى واحد ، وعندما يسمع إنسان قَوْل الحق سبحانه :﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴿١٠٢﴾﴾[آل عمران] مـاذا تعنى «حق تقاته»؟

إن كلمـة حق ـ كـمـا نعـرف ـ تعنى : الشىء الثـابت الذى لا يزول ولا يتزحزح أى : لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق.

إذن : مـا حقّ التـقـى ؟ هو أن يكون إيمانك أيهـا المؤمـن إيماناً راسـخـاً لا يغادرك ولا تتـذبذب معه ، واتقاء الله حق تقـاته هو اتباع منهجـه ، فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصى ، ويُذْكَر فلا ينسى ، ويُشْكَر ولا يُكْفر .

وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل».

القسم الثاني

متطلبات الإيمان

١ الأدب مع رسول الله ﷺ

يكشف الحق سبحانه دسائس اليهود وكيدهم للإسلام والمسلمين ، وتحذير المسلمين من ألاعيبهم وحِيلهم ، وما تُكِنُّه نفوسهم للمسلمين من الحقد والشر ، ونهى المسلمين عن التشبه بهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب فى قول أو فعل.

يقول الحق سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة]

هذا نداء للمؤمنين ؛ لأن الآية الكريمة تبدأ بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة] وعندما ينادى الحق المؤمنين بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ نعرف أن الإيمان هنا هو سبب التكليف ، فالله لا يُكلِّف كافراً أو غير مؤمن ، ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا ، فما دام العبد قد آمن فقد أصبحتْ مسئولية حركته فى الحياة عند ربه ؛ ولذلك يُوحى إليه بمنهج الحياة ، أما الكافر فلا يُكلِّفه الله بشىء.

إذن: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [البقرة]

أمر لمن آمن بالله ورضى به إلهاً ومُشرِّعاً ، فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

أى: أن خطابه سبحانه للمؤمنين يكون دائماً فى الأحكام التى يخاطب بها المؤمنين ، أما فى أصول العقائد والإيمان الأعلى بالواحد الموجِد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافة.

يقول الحق سبحانه فى سورة النساء:

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا(١) يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦)﴾

[النساء]

يُنبِّهنا الحق سبحانه ألاَّ نكون مثل اليهود فى تحريف الكلام عن مواضعه ، والتحريف أنك تأتى باللفظ الذى يحتمل معنيين: معنى خير ، ومعنى شر ، ولكنك تريد منه الشر ، مثل الذى يقول: «السام عليكم ـ والعياذ بالله» هى في ظاهرها أنه يقول : السلام عليكم . لكنه يقول : السام . يعنى : الموت.

إذن : ففى اللفظ ما يُلحظ مَلْحظ الخير ، ولكن العدو يُميله إلى الشر ، ومثل هذا ما قالوه للنبى ﷺ : قالوا : راعنا . وهى من المراعاة ، لكنهم كانوا يأخذونها من الرعونة ، فيأتى الأمر : اترك الكلمة التى تحتمل المعنيين ، واقطع الطريق على الكلمة التى تحتمل التوجهين ؛ لأن المتكلم قد يريد بها خيراً ، وقد يريد بها شراً .

فمعنى تحريف الكلام ، أى : أن الكلام يحتمل كذا ويحتمل كذا ، والمثال على ذلك ؛ الرجل الذى ذهب لخياط ليخيط له قباء ، وكان الخياط كريم العين أى : له عين واحدة ، فلم يعجب الرجل بخياطة القباء فقال : والله ما دُمْتُ أفتضح بهذا الثوب الذى خاطه لى أمام الناس ، فلا بُدَّ أنْ أقول فيه شعراً يفضحه فى الناس ، فقال:

---

(١) هادوا : دخلوا في اليهودية . سميت اليهود اشتقاقاً من هادوا أى: تابوا . والهَوْد : التوبة . وتهود : تاب ورجع إلى الحق فهو هائد . [لسان العرب ـ مادة : هود].

خَـــاطَ لِـــى عَمْـرٌو قبـاء   لَـيْـتَ عَيْـنَيْـهِ سَــــوَاءُ

فقوله : ليت عينيه سواء. يُظهر ماذا ؟ هل يا ترى يتمنى له أنْ تكون عينه المريضة مثل السليمة ؟ أو يتمنى أن تكون العين السليمة مثل المريضة ؟ إذن : فالكلام يحتمل الخير والشر .

وقد حكَوْا لنا أن واحداً من الولاة طلب من الخطيب أنْ يسبَّ سيدنا علياً ـ كرَّم الله وجهه وآله ـ وأنْ يلعنه على المنبر . فقال الخطيب: اعفنى . فقال الوالى: لا ، عزمتُ عليك إلاّ فعلتَ

فقال له الخطيب : إنْ كنتَ عزمتَ علىَّ إلاَّ فعلتُ فسأصعد المنبر وأقول: طلب منى فلان أنْ أسبَّ علياً فقولوا معى : يلعنه الله .

فقال له : لا تَقُلْ شيئاً.

فقد فهم الوالى مقصد الخطيب وقدرته على استعمال الكلام على معنيين.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ (٤٦)﴾ [النساء]

فالكلام المنزَّل من الله وُضِع ـ أولاً ـ وضعه الحقيقى ، ثم أزالوه وبدَّلوه ووضعوا مكانه كلاماً غيره مثل تحريفهم الرجم بوضعهم الحدَّ مكانه. فهم رفعوا الكلام المقدس من موضعه الحق ، ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حَسْب أهوائهم بما اقتضتْه شهواتهم ، فكأنه كانت له مواضع ، وهو جدير بها .

فحين حرَّفوه تركوه كالغريب المنقطع الذى لا موضعَ له ، فمرة يُبدِّلون كلام الله بكلام من عنده ، ومرة أخرى يحرفون كلام الله بتأويله حسب أهوائهم.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [النساء]

فلم يقولوا «راعنا» من الرعاية ، بل من الرعونة ، فقال : لا . اتركوا هذا اللفظ ؛ لأنهم سيأخذون منه كلمة يريدون منها الإساءة إلى رسول الله ﷺ .

و«اللَّيّ» هو فَتْل الشيء . والفَتْل : توجيه شِقَّيْ الحبل الذى تفتله عن الاستقامة ، وهذا الفَتْل يعطيه القوة ، وهم يعملون هذه العمليات لماذا؟ لأنهم يفهمون أنها تعطى قوة لهم.

فهم يلوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه ، أو يلوون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعانى .

واللى ـ كما قلنا ـ هو الفَتْل ، فنحن عندما نفتل حبلاً نحاول أنْ نجدل بين فرعين اثنين من الخيوط ، ثم نفتلهم معاً لنصنع حبلاً ، والهدف من الفَتْل هو أن نصنع قوة من شعيرات الخيوط ، فهذه الشعيرات لها قوة محدودة ، وعندما نفتل هذه الخيوط فإننا نزيد من قوة الخيوط بجَدْلها معاً.

إذن : فالفَتْل المراد به الوصول إلى قوة.

﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [النساء] ، وما داموا يلوون الكلام عن الاستقامة فهم يريدون شراً ؛ لأن الدين جاء استقامة فساعة يلويه أحد ، فماذا يريد ؟

إنه يريد طَعْناً فى الدين.

إذن: فمعنى ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يخبر أحباب رسول الله ﷺ أن خصومه يأتون بالألفاظ محتملة لذم رسول الله ﷺ ؛ لذلك

يُوضِّح : احذروا أنْ تقولوا الألفاظ التى يقولونها ؛ لأنهم يريدون فيها جانب الشر ، وعليكم أنْ تبتعدوا عن الألفاظ التى يمكن أنْ تحوَّل إلى شر.

فلو قالوا : ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن .. ﴿٤٦﴾** ﴾ [النساء]

وساعة تسمع «لكن» فلتعلم أن الأمر جاء على خلاف ما يريده المشرِّع؛ لأنه يقول: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا ﴿٤٦﴾** ﴾[النساء] لكنهم لم يقولوا. إذن : فالأمر جاء على خلاف مراد المشرِّع.

﴿**وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴿٤٦﴾** ﴾ [النساء]

واللعن هو : الطرد والإبعاد ، فهل تَجنَّى الله عليهم فى لَعْنهم وطردهم ؟ لا . هو لم يلعنهم إلا بسبب كفرهم ، إذن : فلا يقولن أحد: لماذا لعنهم الله وطردهم ؟ وما ذنبهم ؟ نقول : لا. هو سبحانه لعنهم بسبب كُفْرهم . إذن : فالذى سبق هو كفرهم ، وجاء اللعن والطرد نتيجة للكفر وتحريف كلام الله ولَيِّه.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾** ﴾ [آل عمران]

فهم يلوون ألسنتهم بكلام يدَّعُون أنه من المنهج المنزَّل من عند الله ، وهذا الكلام ليس من المنهج ولم ينزل من عند الله ، إنهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم ، والتنقيص من مكانة الإسلام ، والطعن فى الرسول ﷺ ، كما قالوا من قبل «راعنا».

ولكن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فضحهم بتحريف كلام الله عن موضعه ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : ما تسمعه منهم لا يضرك ، لأننا سجلنا عليهم أنهم قالوا «سمعنا وعصينا» ، كما قاموا بتحريف الكلمة وقالوا: «اسمع غير مسمع» أى: لا سمعتَ أبداً.

تماماً ، كما أخذوا من قبل قول الله عزوجل :﴿ **وَقُولُوا حِطَّةٌ** (١٦١) ﴾[الأعراف] فحرَّفوا هذا القول «وقولوا حنطة»

وذلك فى قوله تعالى:

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** (٥٨) **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** (٥٩) ﴾

[البقرة]

والله ـ تبارك وتعالى ـ لم يكلف بنى إسرائيل بأنْ يدخلوا هذه القرية التى يقال إنها القدس . ويقال : إنها قرية فى فلسطين ، أو قرية فى الأردن ، إلا بناء على طلبهم هم ، فهم الذين طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم أنْ يدخلوا وادياً فيه زرع ؛ ليأكلوا مما تنتج الأرض ، ويطمئنوا على طعامهم ؛ لأنهم يخافون أنْ يأتى يوم لا ينزل عليهم المنُّ والسلوى من السماء.

فلما استجاب الله لدعواهم وقال لهم : ادخلوا الباب خاشعين وقولوا: يارب حُطَّ عنا ذنوبنا . فبدَّل بنو إسرائيل القول ، فبدلاً من أنْ يقولوا «حطة» قالوا «حنطة».

والحطة تعنى الدعاء بأنْ يقولوا : يا رب حُطّ عنّا ذنوبنا ، فنحن قد استجبنا لأمرك ، وجئنا إلى القرية التى أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها

ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفَّههم فيه .

بل إنهم أيضاً بدَّلوا طريقة الدخول إلى القرية ، فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا على أدبارهم زاحفين ، وكان هذا رغبة فى المخالفة ، فأصابهم الله بعذاب من السماء بما كانوا يفسقون .

أى: يبتعدون عن منهج الله ولا يطبقونه ، رغبة فى المخالفة وإصراراً على العناد.

والحق سبحانه يُعلِّمنا الأدب مع رسول الله ﷺ فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① ﴾ [الحجرات]

أى: يا مَنْ آمنتم بى إلهاً ، وآمنتم بى واحداً قيُّوماً حكيماً ، وآمنتم بى بأنْ أُجازى على السيئة ، وآمنتم بأنى أستطيع أنْ أقيم الساعة فى أىِّ وقت ، يا مَنْ آمنتم بى لا تُقدِّموا بين يدى الله ورسوله.

أى: لا تقطعوا أمراً قبل أنْ يقضى فيه رسول الله ﷺ ، ورسول الله لا يقضى إلا عن وحى من الله ، فكأنكم إنْ وقفتم أمام أمر رسول الله ، وقفتم أمام أمر من الله الذى آمنتم به ، وكنتم غير متَّقين له سبحانه .

فإذا قال الله أمراً أو قال رسول الله رأياً ، فلا تُقدِّموا رأياً من عندكم يخالف كلام الله ورسوله .

فأول شىء أمرهم به الله سبحانه ألاَّ يُقدِّموا أو يقطعوا أمراً بين يدى رسول الله ، بل قولوا: نحن بين يديك ، ما تقوله لنا ننفذه مثلما نفذتم صلح الحديبية وأنتم غير راضين عنه.

فلا تُقدِّموا فى أىِّ مسألة رأياً ما دام لله ورسوله فيها حكم أو كلام .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ۝٢﴾ [الحجرات]

لأن رَفْع الصوت أمام مَنْ تُحدِّثه فيه سوء أدب ، فما دام هناك صوت للنبى ﷺ لا يصح أنْ يعلو صوت على صوته ، ولا بُدَّ أن يكون أخفضَ من صوته ، وأنْ نُكلِّمه بأدب وخشوع.

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۝٦٣﴾ [النور]

لماذا؟ لأن التوقير يجب أن يكون ـ كما يكون بالإيمان به ـ باللسان ، ويكون بانخفاض الصوت أمامه ، لأن رفع الصوت يدل إما على التساوى ، وإما على العلو.

ولنداء رسول الله ﷺ آداب يجب مراعاتها ، فهو ليس كأحدكم تنادونه: يا محمد ، وقد عاب القرآن على جماعة لم يلتزموا أدب النداء مع رسول الله ﷺ ، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ۝٤ ﴾ [الحجرات]

فأساءوا حين قالوا : يا محمد ، ولو قالوا حتى : يأيها الرسول فقد أساءوا ، لأنه لا يصحُّ أنْ يتعجلوا رسول الله ، ويجب أن يتركوه على راحته ، إنْ وجد فراغاً للقائهم خرج إليهم . إذن: أساءوا من وجهين.

ولا يليق أنْ نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله ، فلا بُدَّ أن نناديه بهذا الوصف ، ولِمَ لا وربه عزَّوجلَّ وهو خالقه ومصطفيه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ، ومن أولى العزم فناداهم بأسمائهم.

﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا (٤٨) ﴾ [هود]

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا (١٠٥) ﴾ [الصافات]

﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ (٣٠) ﴾ [القصص]

﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ (١١٦) ﴾ [المائدة]

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ (٢٦) ﴾ [ص]

لكن لم يُنادِ رسول الله ﷺ باسمه أبداً ، إنما يناديه بـ يأيها الرسول ، يأيها النبى.

فإذا كان الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يجعل دعاءه للرسول كدعائه لباقى رسله ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أن نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرَّف.

وكما نميز دعاء رسول الله حين نناديه ، كذلك حين ينادينا نحن يجب أنْ نُقدِّر هذا النداء ، ونعلم أن هذا النداء لخير عام يعود نفعه على الجميع .

ثم يقول تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا (١) فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾ [النور]

لا شكَّ أن الذين يستأذنون رسول الله فيهم إيمان ، فيُراعون مجلس رسول الله ، ولا يقومون إلا بإذنه ، لكن هناك آخرون يقومون دون استئذان ، فهم يتسللون ، والتسلل هو الخروج بتدريج وخُفْية ، كأنْ يتزحزح من مكان لآخر

(١) لاوذه لواذاً : راوغه . قال الزجاج : معنى لواذاً ههنا خلافاً أى: يخالفون خلافاً. وقيل : معنى يتسللون : يلوذ هذا بذا ، ويستتر ذا بذا أى : مستخفين ومستترين بعضكم ببعض . [لسان العرب - مادة : لوذ].

حتى يخرج ، أو يُوهمك أنه يريد الكلام مع شخص آخر ليقوم فينسلت من المجلس خُفية ، وهذا معنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴿٦٣﴾﴾ [النور] يلوذُ بآخر ليخرج بسببه .

ويحذر الله هؤلاء : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴿٦٣﴾﴾ [النور] والتحذير إنذار بالعاقبة السيئة التى تترتب على الانسحاب من مجلس رسول الله ، كأنه يقول لهم : قارنوا بين انسحابكم من مجلس الرسول ، وبين ما ينتظركم من العقاب عليه .

لذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة ، ويتأدَّبون فيها مع رسول الله ، ويسألونه فى الأمر : أهو من عند الله قد نزل فيه وحى ، أم هو الرأى والمشورة؟

فإنْ كان الأمر فيه وَحْى من الله فلا كلامَ لأحد مع كلام الله ، وإنْ كان لم يرد فيه من الله شىء أدلى كل منهم برأيه ومشورته .

وهذا حدث فعلاً فى غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ منزلاً رأى بعض الصحابة أن غيره خَيْر منه ، فسألوا رسول الله : أهذا منزل أنزلكَهُ الله ، أم هو الرأى والمشورة ؟

فقال : «بل هو الرأى والمشورة»(١) فأخبروه أنه غير مناسب ، وأن المكان المناسب كذا وكذا .

ويُوجِّه الحق سبحانه المؤمنين إلى أدب آخر من الأدب مع الرسول ﷺ ، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ

(١) قال الحباب بن المنذر بن الجموح : «يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله » الحديث . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٦٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق.

﴿وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات]

فلا تجهروا للرسول بالقول كما تجهروا مع بعضكم ، خشية أن تحبط أعمالكم ؛ لأن الذى يعامل رسول الله برفع الصوت عنده ، أو الجهر له بالقول ، أو تدعونه كما تدعون أنفسكم ، فهذا يُحبط العمل .. لماذا؟

لأن عملك الذى تعمله على أنه نية طاعة ، مَن الذى كلّفك به ؟ الرسول ﷺ كلَّفك به من عند الله ، وليس من عند نفسه ، فحين لا تُوقِّر الرسول ، فأنت لم تُوقِّر الله سبحانه .

فهذه الأعمال مع الرسول ﷺ تحبط عملك دون أن تدرى ، فلا بُدَّ أنْ تحتفظ للرسول بمهابته ومكانته مهما كان رءوفاً ورحيماً بالمؤمنين ومتواضعاً لله ، فإياكم أنْ تغترُّوا بأن الرسول بالمؤمنين رءوف ورحيم ، بل كما فعل معكم ذلك أعطوه مهابةً وكرامةً أكبر من ذلك .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات]

فالذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ أولئك عرفوا مكانة الرسول ، وأعطوا له قدره ، فمثلاً يأتى خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك رضي الله عنه ويقول: «لقد خدمت رسول الله عشرين سنة ، فوالله ما قال لى فى شىء فعلته : لِمَ فعلته ؟ ولا فى شىء لم أفعله : لِمَ لَمْ تفعله ؟»(١)

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٣٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥١) كتاب الفضائل ، من حديث أنس بن مالك.

انظر إلى الرأفة والرحمة بالخدم ، ولكن هذا يجب ألاَّ يُغريكم عن منزلتكم منه ﷺ ، بل أعطوه التوقير اللازم له ، بحيث لا تسقط رأفته ورحمته بكم ، مهابته عندكم .

فمعنى «يغضون» أى: يخفضون أصواتهم ، ويُكلِّمونه برقَّة وأدب.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات]

قالوا: إن صحابة رسول الله ﷺ وأتباع دينه ، وهو الإسلام ، مُكلَّفون بمهمة هى مهمة الأنبياء الذين سبقوا رسول الله ؛ لأنهم مُفوَّضون أنْ يحملوا أمانة رسول الله ﷺ إلى العالم كله ، فلا نجعلهم يحملون أمانة تبليغ رسالة الله إلى العالم كله ، إلا إذا اختبرناهم ، حتى لا نأخذ إلا الصنديد ، صاحب العزيمة القوية والهمة العالية .

وهذه مأخوذة من امتحان الذهب ، حيث يغلوه فى البوتقة حتى يُخرِجوا منه الشوائب العالقة والمعادن الأخرى ، ولا يبقى إلا الذهب الخالص وهو عيار ٢٤ ، وهناك معادن تخلط به ، وتجعله عيار ٢١ ، ومعادن تجعله عيار ١٨ ، ومعادن تجعله عيار ١٦ .

كذلك الحديد العادى يُدخِلونه النار ، فيخرج الخبث والشوائب ، ويتبقى الحديد الصلب ؛ لأنك أخرجت الشوائب التى تمنع التحام الجزئيات مع بعضها .

ولذلك ، فالصلابة فى الشىء تأتى من أن كلَّ ذرة ملتحمة بالأخرى التحاماً قوياً ، وليس بينها فاصل ، ولذلك يُقَال : هذا حديد صلب . أى : قوىٌّ ومتماسك الذرات ، فكذلك المؤمن.

فالذين يخفضون أصواتهم عنـد رسول الله ﷺ قد عرفوا مكانته وأعطوه قدره ، وهم الذين امتحن الله قلوبهم واختبرهم للتقوى حتى يكونوا أهلاً لحمل أمانة تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس كافة .

وهذا الاختبـار والابتلاء هدفه تقوية عـزائمهم ورفع همتهم حـتى يصمدوا أمام الأحداث ، ويتحملوا الشدائد والمحن بعزيمة لا تلين ، وصبر لا ينفد .

٢ الصبر والصلاة

الصبر نصف الإيمان ، والصلاة عماد الدين ، لذلك كان الصبر والصلاة هما أول ما يطلبه الله ممن آمن بهذا الدين ، إعداداً للمؤمنين ليواجهوا مقتضيات إيمانهم ومتطلباته ، وهذا يحتاج إلى الصبر، الصبر على الإيمان ، والصبر على الصلاة والعبادة والطاعة، والصبر على الصبر نفسه ، وهو التصبُّر.

يقول الحق سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)** ﴾ [البقرة]

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الألوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان .

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين ، فإذا نودى عليهم بهذه الصفة فهى علامة السمو المقبول .

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها ، وفى الاستمرارية ارتقاء .

فالله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة .. على ماذا ؟ على كل ما يطلبه منا الله .. على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة .. ولكن لماذا الصبر ؟ لأن الصبر هو منع النفس من الجزع من أى شىء

يحدث، وهو يأخذ ألواناً شتى حسب تسامى الناس فى العبادة .

فمثلاً ، سُئل الإمام على رضي الله عنه عن حق الجار ؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه؟ قالوا : نعم . قال : وأن تصبر على أذاه . فكأنه ليس مطلوبًا منك فقط ألا تؤذى جارك ، بل تصبر على أذاه .. والصبر هو الذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ، ولا تفعل ما نهاك الله عنه .

إن الله منعك من أشياء هى من شهوات النفس ، وأمرك بأشياء فيها مشقة ، وهذه محتاجة إلى الصبر ، وأنت إن أخذت منهج الله تعبدًا ستأخذه فيما بعد عادة .

يقول أحد الصالحين فى دعائه : اللهم إنى أسألك ألا تكلنى إلى نفسى ، فإنى أخشى يا رب ألا تثيبنى على الطاعة ، لأننى أصبحت أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا .

انظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة مُحَبَبة إلى النفس ، فها هو رسول الله ﷺ كان يقول لبلال ساعة الأذان بالصلاة : « أرحنا بها يا بلال »(١) .

ولم يقل كما يقول بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ أرحنا منها ، ذلك أن هناك من يقول لك : إن الصلاة تكون على كتفى مثل الجبل وأرتاح ، نقول له : أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها ، لأنك وقفت بين يدى الله المكلِّف ، وما دام الإنسان واقفاً أمام ربه ، فكل أمر شاق يصبح سهلاً.

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتى ، ولكن أواجهه بربوبيته

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة.

فأرتاح ؛ لأنه ربى ورب العالمين ، فالذى له أب يعينه لا يحمل هَمّاً ، فما بالك بالذى له رب يعينه وينصره؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة]

أى : أنه يطلب منك أن تواجه الحياة فى معية الله ، فأنت لو واجهت المشكلات فى معية من تثق فى قوته تواجه الأمور بشجاعة ، فما بالك إذا كنت فى معية الله ، وكل شىء فى الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شىء أن يقف أمامك وأنت مع الله ؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم ، وأما من يعيش فى حضانة ربه فلا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خناس، ما معنى خناس ؟

إذا سهوت عن الله اجترأ عليك ، وإذا ذكرت الله خنس وضعف ، فهو لا قوة له ، وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى فى معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويبتعدون عنه .

يقول القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وما دام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر ، وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟

يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

« يابن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْنى. قال : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدى فلانًا مرض فلم تَعُدْه ؟ أما علمتَ أنك لو

عُدَّته لوجدتنى عنده »(١).

يقول بعض الصالحين : اللهم إنى أستحى أن أسألك الشفاء والعافية حتى لا يكون ذلك زهداً فى معيتى لك .. إذن : لابد أن نعشق الصبر ؛ لأنه يجعلنا دائماً فى معية الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة] نحن نريد أن يكون الله سبحانه معنا دائماً ، إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقى فى حركة حياته من المشقة.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه بعد أن لفتنا إلى أن التوراة تطالب اليهود بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، يطلب سبحانه منا الاستعانة بالصبر والصلاة ، ومعنى الاستعانة بالصبر أن هناك أحداثًا شاقة ستقع ، وأن المسألة لن تكون سهلة ، بل تحتاج إلى جهد .

فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب ، وهم ما داموا قد تعودوا على شراء آيات الله بثمن قليل ؛ لأنهم قلبوا الصفقة ، فجعلوا آيات الله ثمناً لمتع الدنيا ، واشتروا بها متعهم وملذاتهم ، وبعد أن تعوَّدوا على الربا وغيره من وسائل الكسب الحرام ، لابد أن يستعينوا بالصبر إذا أرادوا العودة إلى طريق الإيمان .

وكما قلنا ، فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ، ولكن بعموم السبب ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/ ١٩٩٠) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٥١٧)من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

فإنها موجهة للجميع ، فكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه ، وليمنع نفسه عن الشهوات التى حرَّمها الله سبحانه .

والصبر فى الآية الكريمة فسره بعض العلماء بأنه الصيام ، فكأن الله تعالى يأمرهم أن يجوعوا ويصبروا على ألم الجوع ، ومشقة الإيمان والصلاة كما قلنا خشوع وخضوع وذلة لله .

فالعلاج فى الصبر مع الصلاة ، والصبر كبير أن تتحمله النفس ، وكذلك الصلاة ؛ لأنهما يأخذان من حركة حياة الإنسان ، والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمتنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها ، والصلاة تحارب الاستكبار فى النفس ، فكأن الوصفة الإيمانية لا تتجزأ فلا يتم الصبر بلا صلاة ، ولا تتقن الصلاة إلا بالصبر .

ويصف الحق سبحانه أولى الألباب ، فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرعد]

فهم فى هذه الآية من صبروا ابتغاء وجه ربهم ، والصبر هو تحمل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام فى النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مصبوراً عليه ، والمصبور عليه فى الأحداث قد يكون فى ذات النفس ، كأن يصبر الإنسان على مشقة التكليف الذى يقول «افعل» و «لا تفعل» .

فالتكليف يأمرك بترك ما تحب ، وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه ، وكل هذا يقتضى مجاهدة من النفس ، والصبر الذاتى على مشاق التكليف.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن الصلاة مثلاً :

﴿ وَإِنَّهَا(١) لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

وهذا صبر الذات على الذات ، ولكن هناك صبر آخر ، صبر منك على شىء يقع من غيرك ، ويُخرجك هذا الشىء عن استقامة نفسك وسعادتها ، وهو ينقسم إلى قسمين : قسم تجد فيه غريماً لك ، وقسم لا تجد فيه غريماً لك .

● فالمرض الذى يخرج الإنسان عن حيز الاستقامة الصحية ويسبب لك الألم ، ليس لك فيه غريم ، لكنك تجد الغريم حين يعتدى عليك إنسان بالضرب مثلاً ، ويكون هذا الذى يعتدى عليك هو الغريم لك .

وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله ، فالذى يقدر على شىء ليس له فيه غريم ، يكون صبره معقولاً بعض الشىء ؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره.

أما صبر الإنسان على ألم أوقعه به من يراه أمامه ، فهذا يحتاج إلى قوة ضبط كبيرة ، كى لا يهيج الإنسان ويفكر فى الانتقام.

ولذلك تجد الحق يفصل بين الأمرين ، يفصل بين شىء أصابك ، ولا تجد لك غريماً فيه ، وشىء أصابك ولك من مثلك غريم فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر الذى ليس لك غريم فيه :

---

(١) قال ابن كثيرٍ فى تفسيره (١/ ٨٧) : «الضمير فى قوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة] عائد إلى الصلاة نص عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك».

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]

فهذه دعوة للصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم فيها كالمرض أو موت أحد الأقارب، وهذه الدعوة للصبر تأتى هنا كعزاء وتسلية.

فهذه دعوة للصبر على مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره، وليس له غريم فيها، كمن أصيب فى صحته أو تعرض لضائقة فى ماله، أو انهار بيته، الخ.

وفى هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذعة الخسارة، لكن لا ضغن فيها على أحد، فالصبر على هذه الأحداث قريب؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد، ويناسبه قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان]

وهو صبر على الأقدار المؤلمة التى لا تفطن أنت إلى الحكمة منها، فالأقدار ما دامت من حكيم، ومجريها عليك رب، إذن: لابد أن لها حكمة فيك، فخذ القضية بحكمة مجريها عليك، فهو سبحانه ربك، وليس عدوك، وأنت عبده وصنعته.

ألم تقرأ قول الرسول ﷺ فى الحديث الشريف: «الخلق كلهم عيال الله، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله»(١).

إذن: حين تجرى عليك الأقدار المؤلمة، فيكفيك للصبر عليها أن تعلم أنها حكمة الله، ويكفيك أن مُجريها عليك ربك، فإنْ جاءت الأقدار المؤلمة بسبب تقصيرك، فلا تلومنَّ إلا نفسك، كالطالب الذى يهمل دروسه ويتكاسل، فيفشل فى الامتحان، فالفشل نتيجة إهماله وتكاسله.

---

(١) أخرج نحوه من حديث عبد الله بن مسعود أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤/ ٢٣٧) وابن الجوزى بإسناده فى «العلل المتناهية» (٢/ ٥١٩) وضعفه، وأورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٤٥٧).

أما الذى يذاكر ويجدّ ويُبكِّر إلى الامتحان مستبشراً فتصدمه سيارة مثلاً فى الطريق ، تمنعه من أداء امتحانه ، فهذا هو القدر المؤلم الذى له حكمة ، وربما داخله شيء من الغرور وعوَّل على مذاكرته ، ونسى توفيق الله له ، فأراد الله أن يُلقِّنه هذا الدرس ليعلمه أن الأمر فى النهاية بيد الله ومعونته ، وأنه الخاسر إنْ لم تصادفه هذه المعونة ، على حد قول الشاعر :

إذَا لَمْ يكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتى فَأولُ مَا يَجْنى عَلَيْه اجْتِهادُهُ

فعليك إذن أن تنظر إن كانت المصيبة نتيجة لما قدمت ، فلا تلومن إلا نفسك، فإن كنت قد أخذت بالأسباب ، واستوفيت ما طُلب منك ، ثم أصابتك المصيبة ، فاعلم أن لله فيها حكمة ، وعليك أن تحترم حكمة الله وقدره فى خَلْقه.

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة]

فالحق - سبحانه وتعالى - يريد أن يعد المؤمن إعداداً كافياً كاملاً ، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد ، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة.

فالحق سبحانه يريد أن يعطى المؤمنين مناعة فيما دون الحياة ، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات ، فكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترفى بالنسبة لفقد الحياة نفسها ، فمن لم يفقد حياته ، فستأتى له ابتلاءات فيما دون حياته وهى ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال ، ونقص فى عدد الإخوة المؤمنين ، وكذلك نقص فى الثمرات.

كل هذه الأشياء يحبها الإنسان ، ويأتى التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضاً مما يحب ، وتلك الابتلاءات تدخل فى نطاق بقاء التكليف.

وأول تلك الابتـلاءات هو الخـوف، والخـوف هو انزعـاج الـنفس وعـدم اطمئنانهـا من توقع شيء ضار ، فـالنفس لها ملكات مـتعددة وعندمـا يصيبـها الخوف فهى تعانى من عدم الانسـجام ، و الخوف خَوَرٌ لا ضرورة له ؛ لأنك إذا كنت تريد أن تُؤمِّنَ نفسك من أمر يخيفك ، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذى يخيفك.

أمـا إن استـسلمت للانزعـاج فلن تسـتطيع مـواجـهة الأمـر المخـيف بكل ملكاتك ؛ لأنك سـتواجـهه ببعض من الملكات الخـائرة المضطربة ، بينمـا أنت تحتاج إلى استـقرار الملكات النفسية ساعة الخـوف ، حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف ، أمـا إن زاد انزعاجك عن الحـد ، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك ؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك ، ولا بجميع تفكيرك.

إذن: فـالذى يخاف من الخـوف نقـول له: أنت معـين لمصدر الخـوف على نفسك ، وخـوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف ؛ ولذلـك لابد لك أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف ، ودع الأمر المخوف إلى أن يقـع، فلا تَعِشْ فى فزعه قبل أن يأتيك.

فآفـة الناس أنهم يعـيشون فى المصـائب قبل وقـوعهـا، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب ، إن المصيبة قـد تأتى مثلاً بعد شهر، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبـة من مواجهتها؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع، تكون قد قصرت مسافتها.

ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأتى المصيبة فهو برحمته يُنزِل معها اللطف ، فكأنك إن عشت فى المصيبة قبل أن تقع، فأنت تعيش فى المصيبة وحدها معزولة عن اللـطف المصاحب لها، لكن لو ظللت صابراً محتـسبًا قادراً

على مواجهة أى أمر صعب ، فأنت لن تعيش فى المصيبة بدون اللطف.

ونأتى إلى الابتلاء الثانى فى هذه الآية الكريمة، وهو الجوع، فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضرورى من الطعام الذى يقيم لك الحياة ، ولذلك شرع الله الصوم لنصبر على أذى الجوع ، لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعد المؤمن إعدادًا كافيًا كاملاً، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد ، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة.

وأما الابتلاء الثالث، وهو نقص الأموال، فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التى تنتج المال، ولذلك تنقص الأموال؛ لأن حركتهم فى الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم الله.

وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين، وقد يستشهد منهم عدد ، وأخيراً يواجهون نقص الثمرات ، والثمرات هى الغاية من كل عمل.

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد ، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى ؛ لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات: صبر على الخوف ، وصبر على الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقص الأنفس ، وصبر على نقص الثمرات.

إذن: فالمهم أن ينجح المؤمن فى كل هذه الابتلاءات، حتى يواجه الحياة صلبًا ، ويواجه الحياة قويًا ، ويعلم أن الحياة معبر، ولا يشغله المعبر عن الغاية.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** (١٥٦)﴾ [البقرة]

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقًا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها.

فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعًا أن يأتى له منها خير، ومعنى قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة]

أى: نحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إذا كان فى مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان ، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله.

إذن: فنحن لله ابتداء بالملكية، ونحن لله نهاية فى المرجع ، وهو سبحانه ملك القوسين ، الابتداء والانتهاء ؛ ولذلك علَّمنا رسول الله ﷺ عند أى مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع، أى : أن يقول: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

وزادنا أيضًا أن نقول: «اللهم أجرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيراً منها» إنك إذا ما قلتها عند أى مصيبة تصيبك فلابد أن تجد فيما يأتى بعدها خيراً منها ، وحتى إن نسى الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة ، ثم تذكرها وقالها فله جزاؤها ، كأنه قالها ساعة المصيبة.

وهناك قصة عن أم سلمة رضي الله عنها ، حين مات أبو سلمة زوجها ـ وكان ملء السمع والبصر ـ وجزعت عليه أم سلمة، فقيل لها قولى: ما علمنا رسول الله ﷺ قالت: وما علمكم؟ قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اجرنى فى مصيبتى، واخلف لى خيراً منها. فقالت ما قيل لها، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبى خاطبًا، فقيل لها: أَوُجِد خير من أبى سلمة أم لم يوجد؟ قالت: ما كنت لأتسامى ـ أى أتوقع ـ مثل هذا الموقف».

أما النوع الآخر، فهو المصائب التى تقع بفعل فاعل، كالقتل مثلاً، فإلى

جانب الفقد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج غضبك ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر فى هذه أصعب ، وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد ، كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

فاستعمل هنا لام التوكيد ، لأن الصبر هنا شاقّ ، والفرصة متاحة للشيطان ليؤلب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد.

هنا يطلب الله من المؤمن أن يغفر لمن أصابه وأن يصبر، وما دام هناك غريم فالنفس تكون متعلقة بالانتقام ، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى، فليس فى الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود غريم فهو يحرك فى النفس شهوة الانتقام.

ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى فى عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم، فيقول: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وهنا ثلاث مراحل: الأولى كظم الغيظ، والثانية هى العفو، والثالثة هى أن تحسن، فترتقى إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون.

فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أى أن الغيظ موجود فى القلب، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه ، ثم يرتقى المؤمن فى انفعاله الإيمانى ، فيأتى العفو، وهذه مرحلة ثانية وهى أن يُخرِج الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .

٣ طيبات الرزق.. وعبادة الشكر

يذكّر المؤمنين بما رزقهم فهو وحده الرازق، أباح لهم طيبات الرزق لا خبيثه، ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك، فالشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من عباده.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)**﴾ [البقرة]

فالحرام لا يأتى منه خير مطلقًا، وهو ينقلب على صاحبه شراً ووبالاً، فإذا دخل الحرام إلى الجسد يميل فعلك إلى الحرام، فالحرام يؤرق الجسد ويسوقه إلى المعاصى.

يقول رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا..(٥١)**﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)**﴾ [البقرة]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّى بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك»(١).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة، وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٨)، والترمذى فى سننه (٢٩٨٩) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه]

والطعام والشراب والهواء مقومات الحياة التى ضمنها الله عز وجل لنا، وما دام الخالق عز وجل خلق لنا أرزاقنا ومقومات حياتنا وجعلها مناسبة لهذا الإنسان الذى كرّمه وجعله خليفة له فى الأرض، وجعل لهذا الرزق ولهذه المقومات حدوداً حدَّها وبيَّنها هى «الحلال»، فلا ينبغى لك بعد ذلك أن تتعدى هذه الحدود، وتطغى فى تناول طعامك وشرابك.

فحدودك فى مقومات حياتك الحلال، ولو استقرأنا ما أحلَّ الله وما حرَّم لوجدنا الأصل فى الأشياء أنها حلال، والكثير هو المحلل لك، أما المحرم عليك فهو القليل المحصور الذى يمكن تحديده.

لذلك يقول عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ مثلاً فى آية أخرى: تعالوا أتْلُ ما أحل الله لكم؛ لأنها مسألة تطول ولا تُحصى.

إذن: ساعة أعطاك ربك قال لك: هذا رزقك الحلال الخالص، ومنه وقودك ومقومات حياتك، وبه بقاؤك ونشاط حركتك، فلا تتعدَّ الحلال على كثرته إلى الحرام على قلَّته وانحصاره فى عدة أنواع، بيَّنها لك وحذرك منها.

وبالغذاء تتم فى الجسم عملية (الأيض) يعنى: الهدم والبناء، وهى عملية مستمرة فى كل لحظة من لحظاتك، فإياك أن تبنى ذرة من ذراتك من الحرام؛ لأن ذرة الحرام هذه تظل تشاغبك وتُلح عليك كى توقعك فى أصلها.

فلا تجعل ذرات بنائك غير منسجمة، فتجعلها تنمو على وقود ما أحله الله لك.

لذلك تسمع من بعض المتمحكين: ما دام الله خلق الخنزير فلماذا حرَّمه؟ نقول: لقد فهمت أن كل مخلوق خُلِق ليُؤكل ، وهذا غير صحيح، فالله خلق البترول الذى تعمل به الآلات ، أتستطيع أن تشربه كالسيارة؟

إذن : فَرْق بين شىء مخلوق لشىء، وأنت توجهه لشىء آخر، هذه تسمى إحالة أى: تحويل الشىء إلى غير ما جُعِل له ، وهذا هو الطغيان فى القوت؛ لأنك نقلت الحرام إلى الحلال.

وقد يأتى الطغيان فى صورة أخرى، كأن تأكل ما أحل الله من الطيبات، لكنك تحصل عليها بطريق غير مشروع ، وتُعوِّد نفسك الكسل عن الكسب الحلال ، فتأخذ مجهود غيرك وتعيش عالة عليه ، فإلى جانب أنك تتغذى على الحرام فأنت أيضًا تُزهِّد غيرك فى الحركة والإنتاج والمِلْك ، وما فائدة أن يتعب الإنسان ويأخذ غيره ثمرة تعبه؟

وقد أخذ الطغيان بهذا المعنى صوراً متعددة فى مجتمعاتنا ، فيمكن أن ندرج تحته: الغصب ، والخطف ، والسرقة ، والاختلاس ، والرشوة ، وخيانة الأمانة ، وخداع من استأجرك إلى غير ذلك من أخْذ أموال الناس بالباطل ودون وجه حق ، وكل عمل من هذه التعديات له صورته.

فالخطف أن تخطف مال غيرك دون أن يكون فى متناول يد المخطوف منه ثم تفر به ، فإن كان فى متناول يده وأنت غالبته عليه ، وأخذته عُنوةً فهو غصب مأخوذ من: غصْب الجلد عن الشاة أى: سلخه عنها. فإن كان أخذ المال خُفْية وهو فى حرزه فهى سرقة ، وإن كنت مُؤتمنًا على مال بين يديك فأخذت منه خفية فهو اختلاس.. إلخ.

إذن: أحل الله لك أشياء ، وحرّم عليك أخرى ، فإن كان الشىء فى ذاته

حلالاً فلا تأخذه إلا بحقه حتى يحترم كل منا عمل الآخر وحركته فى الحياة وملكيته للأشياء ، وبذلك تستقيم بنا حركة الحياة ، ويسعد الجميع ، ونعين المنفق ، ونأخذ على يد المتسيِّب البلطجى.

بل إن الحق سبحانه خاطب الرسل، وأمرهم بالأكل من الطيبات، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون]

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح، ﴿**وَاعْمَلُواْ صَالِحًا.. ﴿٥١﴾**﴾ [المؤمنون] ، ثم يقول سبحانه: ﴿**إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾**﴾ [المؤمنون].

كأن الحق سبحانه يقول: اسمعوا كلامى فيما آمركم به، فأنا عليم وخبير بكل ما يُصلحكم ؛ لأننى الخالق الذى أعلم كيف تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب.

فلكى تؤدى الصالح فى حركة حياتك عليك أن تبدأ بالمطعم الطيب الذى يبنى ذراتك من الحلال ، فيحدث انسجامًا بين هذه الذرات ، وتعمل معًا متعاونة غير متعاندة ، وإن انسجمت ذراتُك وتوافقت أعانتك على الصالح.

فإنْ دخل الحرام إلى طعامك وتلوثتْ به ذراتك تنافرت وتعاندت ، كما لو وضعت للآلة وقودًا غير ما جُعِل لها ، فافهموا هذه القضية ، لأننى أنا الخالق فآمنوا لى كما تؤمنون بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكم قانون صيانتها.

إذن: أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات ، لأن العمل الصالح يحتاج إلى جهاز سليم متوافق من داخله ؛ لذلك فى سيرة النبى ﷺ أن أم عبد الله أخت شداد بن أوس، أرسلت إلى النبى فى يوم صامه وهو حار شيئًا من اللبن يفطر عليه، وهو ﷺ يعلم أنها فقيرة لا تملك شيئًا ، فأرسل إليها: من أين لك هذا اللبن؟

فأرسلت إليه : من شاة عندى، فبعث إليها: ومن أين لك بالشاة؟قالت: اشتريتها بمال دبّرته. فشرب رسول الله من اللبن(١).

بل إن من مقاصد الرسالة المحمدية هى تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وفى هذا يقول سبحانه: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ..** (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

فقد جاء رسول الله ﷺ ليحل لهم ما حُرِّم عليهم من الطيبات التى مُنعوا منها ، وحظرها الله عليهم جزاء طغيانهم وضلالهم ، ويُحرِّم عليهم كل ضار وخبيث: كأكل الميتة والمال الحرام من الربا والرشوة والغش.

فالله رزقنا الطيبات وأحلها لنا ، وحرّم علينا الخبائث ، وهذا يستوجب منا الشكر والحمد لله ، خشية أن نقع فى جحود النعمة ونكرانها والكفر بها ، فهذا مستوجب لمقت الله وعقابه وزوال النعمة وذهابها.

(١) عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك فى طول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها : أنى لك هذا اللبن؟ قالت: من شاة لى. قال: فرد إليها رسولها: أنى كانت لك هذه الشاة؟ قالت: اشتريتها من مالى فأخذه منها ، فلما كان من الغد أتته فقالت أم عبد الله : يا رسول الله ، بعثت لك باللبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر ، فرددت رسول الله فيه ، فقال لها : بذلك أمرت الرسل ألا تأكل إلا طيبًا ولا تعمل إلا صالحًا . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩١) وقال : «رواه الطبرانى وفيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف».

يقول تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

والهدف من ضرب هذا المثل أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشتى أنواع النعم فجحدها ، ولم يشكره عليها ، ولم يُؤدِّ حق الله فيها ، واستعمل نعمة الله فى معصيته فقد عرَّضها للزوال ، وعرَّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة ، فقيّد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها ؛ لذلك قال الشاعر:

إِذَا كُنْتَ فِى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ المَعَاصِى تُزِيلُ النِّعَم
وَحَافِظْ عليها بشُكْرِ الإلهِ ... فَإِنَّ الإلَهَ شَدِيدُ النِّقَم

فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة ، أى : فى مأمن من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نعم الله تعالى على البلاد والعباد ، وهى أيضًا لديها مقومات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مستقرة مريحة .

لقد تمت لهم النعمة واكتملت لديهم وسائل الحياة الكريمة الآمنة الهانئة ، فماذا كان منهم؟ هل استقبلوها بشكر الله؟ هل استخدموا نعمة الله عليهم فى طاعته ومرضاته؟

لا ، بل كفروا بأنعم الله ، أى: جحدت هذه القرية بهذه النعم ، واستعملتها فى مصادمة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وكأن فى الآية تحذيرًا من الحق سبحانه لكل مجتمع كفر بنعمة الله ،

واستعمل النعمة فى مصادمة منهجه سبحانه ، فسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء.

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

أى: أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدورهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله ﷺ بالصدود والجحود والنكران ، وتعرضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيَّتوا لقتله ، حتى دعا عليهم قائلاً : « **اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف**»(١).

بل إن الحق سبحانه قد يعاقب قومًا ويحرمهم من هذه الطيبات ، وذلك مثلما حدث مع قوم بنى إسرائيل بسبب ظلمهم وتعديهم ، يقول الحق سبحانه: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠)﴾ [النساء]

وفى آية أخرى يفصل الحق سبحانه ، فيقول تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾ [الأنعام]

فليس كل ما يحرمه الله يكون ضارًا ، قد يُحرم الله أشياء لتأديب الخلق ، فيأمر بالتحريم ، ونحن على المستوى البشرى ـ ولله المثل الأعلى ـ يمنع الإنسان منا «المصروف» عن ابنه تأديبًا ، أو يمنع عنه الحلوى ، ليس لأنه حرام ، بل تأديبًا

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦)، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

وجزاء ، لأنه خرج عن طاعة والده أو والدته.

إن التشريع السماوى حينما يأتى لظالم يخرج عن منهج الله فكأنه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الربا ؟ لماذا يصد عن سبيل الله؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟

إن الظالم يفعل ذلك حتى يُمتِّع نفسه بشىء أكثر من حقه ؛ لذلك يأتى التشريع السماوى ليفوِّت عليه حظ المتعة ، وكان هذا الحظ من المتعة حقّاً وحلاً له ، لكن التشريع يحرمه.

ومثال ذلك القاتل يُحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله ، وأراد أن يعجل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ؛ لذلك يأتى التشريع ليحرمه من الميراث.

كأن التشريع يقول له : « ما دامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث» والتشريع حين وضع ذلك إنما حمى كل مورث ، وإلا لكان كل مورث عرضة لتعدى ورثته عليه بالقتل لينتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمه من الميراث ، وكذلك هنا نجد الظلم بأنواعه المختلفة ، الظلم بإنكار الحق ، والصد عن سبيل الله ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وما دام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم ، فالتشريع يسلب منهم أشياء كانت حقّاً لهم .

وهذا السلب وهذا التحريم ليس تعدياً عليهم ، أو تعنتًا فى معاملتهم ، بل لأنهم بغَوْا ، والباغى يجب أن يأخذ حقه من الجزاء ، حتى يفكر ماذا يحقق له البغى من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضًا ، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بَغْيه ، وهم قد صدوا عن سبيل الله ، وأخذوا ربا ليُنموا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل.

لذلك حرّم عليهم الحق بعض الحلال ، وسبحانه صادق فى كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصى ، فكان التحريم عقوبة لهم .

لذلك يوجِّه سبحانه عباده الذين آمنوا لشكر الله عز وجل أن وهبهم نعمة الأكل من الطيبات ، لذلك استحق الحق سبحانه الشكر والحمد والثناء ، ويربطها الحق سبحانه بقوله : ﴿ **إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)** ﴾ (البقرة)

فشكر العبد المؤمن للرب الخالق واجب ، ما دام العبد المؤمن يختص الله بالعبادة ، فالشكر عبادة ، لذلك قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)** ﴾ (البقرة)

فكل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها ، أن تعيشوا دائمًا فى ذكر من أنعم عليكم ، فالله سبحانه يريد من عباده الذكر ، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم.

فقوله تعالى :﴿ **اذْكُرُونِي** ﴾ أى: اذكروا الله فى كل شىء ، فى نعمه ، فى عطائه ، فى ستره ، فى رحمته ، فى توبته.

واعلم أن الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يزيدك منها ، واقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)**﴾ (إبراهيم) فشكر الله يُذهب الغرور عن نفسك ، فلا تفتنك الأسباب وتقول : أوتيته على علم منى.

﴿**وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)** ﴾ (البقرة) أى : لا تستروا نعم الله ، بل اجعلوها دائمًا على ألسنتكم ، فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلتها بقولك (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) لا ترى فى النعمة مكروهاً أبدًا ، لأنك حَصَّنت النعمة بسياج المنعم.

أعطيت لله حقه فى نعمته ، فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت مُوجِدها ونسيت المنعم ، وهو الله سبحانه وتعالى ، فإن النعمة تتركك .

٤ القصاص شريعة العدل

العدل الجازم هو الذى يكسر شِرَّة النفوس ويردع الجانى عن التمادى فى سفك الدم ، ومن هنا ندرك سعة آفاق الإسلام ، وبصره ومعرفته بما فُطرت عليه النفوس من النوازع ، فالغضب للدم فطرة وطبيعة ، فالإسلام يلبيها بتقرير شريعة القصاص ، ولكنه فى الوقت ذاته يُحبِّب فى العفو، ويفتح له الطريق ويرسم له الحدود.

يقول الحق سبحانه : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ (١٧٨)** ﴾ (البقرة)

فللقصاص فى الإسلام حِكَم عالية ، فليس الهدف منه أن يُضخَّم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس ، كما قال تعالى ﴿**وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ (١٧٩)**﴾ (البقرة) ، فمن أراد أن يحافظ على حياته فلا يُهدِّد حياة الآخرين.

وحينما يعطى ربنا - تبارك وتعالى - حق القصاص لولىّ المقتول ويُمكِّنه منه تبرد ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر فى العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكم الغلَّ من الصدور ، ويطفىء نار الثأر بين الناس.

ولذلك نرى فى بعض البلاد التى تنتشر فيها عادة الثأر ، أن القاتل يأتى

حاملاً كفنه على يده إلى ولىٍّ المقتول ، ويضع نفسه بين يديه معترفاً بجريمته : ها أنا بين يديك ، اقتلنى وهذا كفنى .

ما حدث ذلك أبداً إلا وعفا صاحب الحق وولىُّ الدم ، وهذا هو العدل الذى جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال.

هذا العفو من ولىّ الدم أداة بناء ، ووسيلة محبة ، فحين نعطيه حقَّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصبحت حياة القاتل هبة من ولى الدم ، فكأنه استأثره واستبقاه بعفوه عنه ، وهذا جميل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حقن دم ابننا.

فمقصود الإسلام هو المحافظة على الأرواح، فلا يعتدى أحد على أحد ، فيقول تعالى :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإسراء)

وحكم القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ، ويمنعه أن يُقْدِم على القتل ، فإن غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلابُدَّ أن يقتصَّ منه ، فإن أخذتنا الشهامة وتشدَّقنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة ، وعارضنا إقامة الحدود فليكُنْ معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض فى إعدام قاتل ، فسوف يتسبب فى إعدام الملايين ، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات ، فكل من اختلف مع إنسان سارع إلى قتله ، لأنه لا يوجد رادع يردعه عن القتل.

إذن : لكى نمنع القتل لابُدَّ أن ننفذ حكم الله ونقيم شرعه ولو على أقرب

الناس ، لأن هذه الأحكام ما نزلت لتكون كلاماً يُتلَى فقط ، بل لتكون منهجاً عملياً ينظم حياتنا ، ويحمى سلامة مجتمعنا.

لذلك ، جعل الحق سبحانه تنفيذ هذه الأحكام علانية أمام الجميع ، وعلى مرأى ومسمع المجتمع كله ، ليعلموا أن أحكام الله ليست شفوية ، بل هى تُطبق أمامهم ، وصدق الله تعالى حين قال : ﴿**وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾**﴾ (النور)

ولا بُدَّ أن نستقبل أحكام الله بفهم واع ونظرة متأملة ، فليس الهدف من تشريع الله للقصاص كثرة القتل ، إنما الهدف ألا يقع القتل ، وألاَّ تحدث هذه الجريمة من البداية.

فحين يخبرك الحق سبحانه أنك إن قتلتَ فسوف تُقتل ، فهو يحمى حياتك وحياة الآخرين ، وليس لدى الإنسان أغلى من حياته ، حتى القاتل لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة ، وقتل من أجلها من قتل ، لأنه ربما خدش عزته أو كرامته ، وربما لأنه عدو له أقوى منه .

ولا شك أن حياته أغلى من هذا كله ، فحين نقول : إن قتلتَ ستُقتل ، فنحن نمنعه أن يُقْدِم على هذه الجريمة ، ونُلوِّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة ، ولذلك قالوا : القتل أَنْفَى للقتل .

وقال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الأَلْبَابِ ﴿١٧٩﴾**﴾ (البقرة)

وهذا نداء لأصحاب الأفهام والعقول الواعية ، ليس القصاص كما يظن البعض ، بل فيه الحياة ، وفيه سلامة المجتمع وحَقْن الدماء.

ويجب أن تكون عندنا يقظة استقبال لأحكام الله ، لأن القاتل ما قتل إلا

حينما غفل عن الحكم ، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرةً موضوعية ، لأنه كما حمى غيرى من قتلى له حمانى أيضاً من قتل غيرى لى ، وما دامت المسألة : لك مثل ما عليك ، وحظُّك منها كحظِّ الناس جميعاً ، فلماذا الاعتراض ؟

وهذا نلاحظه فى أمر السرقة أيضًا ، فحينما يقول لك : لا تسرق فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيَّد حريتك أنت ، لكن الحقيقة أنه أيضًا قيَّد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك ، والذى يتأمل هذه الحدود يجدها فى صالح الفرد ، لأنها تقيِّد حريته وهو فرد واحد ، وتُقيَّد من أجل حرية المجتمع كله .

إن فى تشريع القصاص استبقاء لحياتكم ، لأنكم حين تعرفون أنكم عندما تقتلون بريئًا ، ستُقتلون بفعلكم فسوف تمتنعون عن القتل ، فكأنكم حقنتم دماءكم ، وذلك هو التشريع العالى العادل .

وفى القصاص حياة ، لأن كل واحد عليه القصاص ، وكل واحد له القصاص ، إنه التشريع الذى يخاطب أصحاب العقول وأولى الألباب الذين يعرفون الجوهر المراد من الأشياء والأحكام ، أما غير أولى الألباب فهم الذين يجادلـون فى الأمور دون أن يعرفوا الجوهر منها ، فلولا القصاص لما ارتدع أحد ، ولولا القصاص لغرقتْ البشرية فى الوحشية .

إن الحكمة من تقنين العقوبة ألاَّ تقع الجريمة ، وبذلك يمكن أن تتوارى الجريمة مع العقوبة ، ويتوازن الحق مع الواجب ، إن عدل الرحمن هو الذى فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها ، وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا.

يقول الحق سبحانه وتعالى فى عقاب جريمة الزنا : ﴿ **وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا**

﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ (النور) ، فالأمر لا يقف عند حد التعذيب والجَلْد ، إنما لا بُدَّ أن يشهد هذا العذاب جماعة من المؤمنين ، والطائفة هم الجماعة وأقلُّها أربعة ، لماذا ؟

قالوا : لأن النفس قد تتحمّل الإهانة إن كانت سراً لا يطلع عليها أحد ، فلا يؤلمه أن تعذبه أشد العذاب بينك وبينه ، إنما لا يتحمل أن تشتمه أمام الناس . إذن : فمشاهدة الحد إهانة لصاحبه ، وهى أيضاً زجر للمشاهد ، ونموذج عملىٌ رادع.

إن الذى يجترئ على حقوق الناس يجترئ أيضاً على حقوق الله ، ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس ، وفى إنزال العقاب بالمعتدى خضوع لمنهج الله ، وفى رؤية هذا العقاب من قِبَل الآخرين هو نشر لفكرة أن المعتدى ينال عقابًا ، ولذلك شرع الحق العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن فى النفس البشرية.

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤثم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق ، والخالق هو الذى صنع الصنعة ، فلا تتعالم على خالق الصنعة ، والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبةً فى قتل النفس أو قطع الأيدى فى جريمة السرقة ، بل تريد الشريعة أن تمنع القتل ، وتمنع الزنا ، وتمنع قطع الأيادى.

فالتشريع إن ظل على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد ، وكما أن القطع أنفى للقطع ، فإن القتل أنفى للقتل. فلا تأخذكم بالمجرمين رأفة ، لأن الرأفة قد تغرى بالذنب. ومثال ذلك حين يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب فقد يُغريه ذلك ويغرى غيره على السرقة.

أما تنفيذ العقوبة ولو مرة واحدة فهو يمثل رادعًا وحماية للمجتمع كله، فعقاب القاتل بالقتل ، أنفى للقتل ، فحين تأتى بالقاتل وتقتله أمام عدد من الناس ، فهذا العمل يمنع أىً إنسان أن يفكر فى القتل ، أو أن يقتل.

إذن : فنحن بالعقوبة نحمى المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم ، ولكن الحوار حول العقوبات فى الإسلام لا يتوقف ، ونقول لهؤلاء : هل هناك مجتمع ليس فيه تجريم أو عقوبات ؟ وانظر الى المجتمعات غير الدينية ، ألاَ توجد بها جرائم وعقوبات ؟ إن كل مجتمع إنما يحمى نفسه بتوصيف الأفعال التى تعتبر جرائم ، ويضع لها عقوبات ، ولا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص.

إذن : فكل مجتمع وكل دولة لا بُدَّ أن تكون فيها عقوبات ، وإلا أصبحت الحياة فوضى يستحيل معها العيش فى أمان ، فإذا كان حاكم أى دولة بسيطة قد وضع تجريماً وعقوبات ، وهو يحكم فيما لا يملك ، أفليس لله أن يضع التوصيف لما يرى سبحانه أنه جرائم ، وأن يُشرع العقوبة الملائمة لكل جريمة ، وهو سبحانه يحكم فيما يملك ؟ وإذا كان سبحانه قد حكم بقطع يد هو خالقها ، فهو أراد ذلك ليمنع ملايين الأيدى من أن تمتد إلى مال الغير.

ولذلك يجب ألاَّ تطول الفترة بين تنفيذ العقوبة ووقت وقوع الجريمة ، لأن الذى يُتعب الناس فى الدنيا هو طول الإجراءات والأخذ والرد ، فينسى الناس الجريمة ، وتأخذهم الشفقة والرحمة بالمجرم ، مع أنه لو وُقِّعت العقوبة فور حدوث الجريمة ، لما طلب أحد الرأفة بالمجرم.

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحن يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه.

ولذلك أقول دائمًا : إن من دواعى استمرار الجرائم إبطاء المحاكمة ، ذلك الإبطاء الذى يجعل عواطف الناس مع المجرم ، لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم.

ولكن ، لو استحضر الناس ـ وقت العقوبة ـ ظرف الجريمة ، لَفرحوا بالحكم على القاتل بالقتل ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يعذب أحدًا يقول : ﴿ **وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢** ﴾ (النور)

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذى شقى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعتدى على عِرْضه أو ماله أو نفس قريب له ، ويرى عذاب المعتدى فهو يُشْفى.

فالحق سبحانه لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجرم لحظة العقاب ، فحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففى ذلك تحذير من ارتكاب الجرم ، وحدّ من وقوع الجرائم.

لذلك قال الحق سبحانه فى كتابه: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۝٣٢** ﴾ (المائدة)

وهذا توضيح لإرادة الحق فى تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيمانى رابطة يوضحها قول رسول الله فيما رواه أبو موسىْ الأشعرى عنه : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» (١)

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال ، قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً. وشبّك رسول الله بين أصابعه» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٥٨٥).

وإياك أن تنظر إلى مجترئ على غيرك بالباطل ، وتقف مكتوفَ الأيدى ، لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، فإنْ قتل إنسان إنسانًا آخر ، ووقف المجتمع الإيمانى موقف العاجز ، فهذا إفساد فى الأرض.

ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل ، لا على أساس أنه قتل نفساً واحدة ، بل كأنه قَتْل للناس جميعًا ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد فى الأرض.

ويكمل الحق سبحانه الشق الثانى من تلك القضية الإيمانية ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴿٣٢﴾ ﴾ (المائدة)، وهذه هى الوحدة الإيمانية ، فمَنْ يعتدى على نفس واحدة بريئة كمن يعتدى على كل الناس ، والذى يسعف إنساناً فى مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً.

وفى التوقيع التكليفى يكون التطبيق العملى لتلك القاعدة ، فالذى يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويعذبه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإنْ نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيمانى مجترئاً بباطل على حق ، إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف المعتدَى عليه بمفرده ، لأن الذى يُجرِّئ أصحاب الشر هو أن يقول بعض الناس كلمة "وأنا مالى".

و"الأنانية" هى التى تُجرِّئ أصحاب الشرور ، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود ، والثور الأحمر ، والثور الأبيض ، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمحا له بأكل الثور الأبيض ، واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر، وجاء الدور على

الثور الأسود ، فقال للأسد: أُكِلْتُ يوم أُكِل الثور الأبيض.

كأن الثور التفت إلى أن "أنا ماليته" جعلتْه ينال مصرعه ، لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه ، وها هو ذا الحديث النبوى الشريف الذى يمثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : «مَثَلُ القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثَلِ قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقَهم ، فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خُرْقًا ولم نُؤْذِ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإنْ أخذوا على أيديهم نَجوْا ونجوا جميعاً» (١)

كذلك مَثَل القائم على حدود الله ومَثَل الواقع فيها ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظروا إلى أن نفساً قتلت نفساً بغير حق ، ولكن انظروا إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ، لأن الناس جميعاً متساوون فى حق الحياة.

وما دام القاتل قد اجترأ على واحد فمن الممكن أن يجترئ على الباقين ، أو أن يكون فعْله أسوة لغيره ، وما دام قد استنَّ مثل هذه السنة ، سنجد كل مَنْ يغضب مِنْ آخر يقتله ، وتظل السلسلة من القَتَلة والقَتْلى تتوالى.

وقوله تعالى : ﴿**مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ** ﴿٣٢﴾﴾ (المائدة) فيه من الاحتياط والدقة والقيد ، فلو كان التشريع تشريعاً بشرياً لمرَّت عليه هذه المسألة ، ولاستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل ، ولكن المشرِّع الأعلى سبحانه لا يستدرك.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٦٨) ، والبخارى فى صحيحه (٢٤٩٣)، والترمذى فى سننه (٢١٧٣) من حديث النعمان بن بشير ، قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح.

فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد فى الأرض لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحيا الناس جميعاً ، لأن التجريم لأىِّ فعل يعنى مجىء النص الموضِّح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة.

فمن مقتضيات إيماننا بالله أن نقيم عدل الله فى الأرض بالاقتصاص من القاتل ، لذلك خاطبنا الله تعالى بقوله : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ (١٧٨)** ﴾ (البقرة)

وظاهر النص أن الحر لا يُقتل بالعبد ، لأنه سبحانه يقول : ﴿**الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ (١٧٨)** ﴾ (البقرة) ، لكن ماذا يحدث لو أن عبداً قتل حراً ، أو قتلت امرأة رجلاً ، هل نقتلهما أم لا ؟

إن الحق سبحانه يضع الضوابط لمسألة الثأر ، وهو سبحانه لم يشرع أن الحر لا يُقتل إلا بالحر ، وإنما مقصد الآية أن الحر يُقتل إن قتل حراً ، والعبد يُقتل إن قتل عبداً ، والأنثى مقابل الأنثى ، هذا هو إتمام المعادلة ، فجزاء القاتل من جنس ما قتل ، لا أن يتعداه القتل إلى مَنْ هو أفضل منه.

إن الحق سبحانه وتعالى يواجه بتشريع القصاص قضية كانت قائمة بين القبائل ، حيث كان هناك قتل للانتقام والثأر ، ففى الزمن الجاهلى كانت إذا نشأت معركة بين قبيلتين ، فمن الطبيعى أن يوجد قتلى وضحايا لهذا الاقتتال ، فإذا قُتل عبد من قبيلة أصرت القبيلة التى تملك هذا العبد أن تُصعِّد الثأر فتأخذ به حراً ، وكذلك إذا قُتلت فى تلك الحرب أنثى ، فإن قبيلتها تُصعِّد الثأر فتأخذ بها ذكراً.

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يحسم قضية الثأر حسماً تدريجياً ، لذلك جاء بهذا الأمر ﴿**الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ (١٧٨)** ﴾ (البقرة) ،

إذن : فالحق هنا يواجه قضية تصعيدية فى الأخذ بالثأر ويضع منهجاً يحسم هذه المغالاة فى الثأر.

وفى صعيد مصر ، ما زلنا نعانى من الغفلة فى تطبيق شريعة الله ، فحين يُقتل رجل من قوم فهم لا يثأرون من القاتل ، وإنما يذهبون إلى أكبر رأس فى عائلة القاتل ليقتلوه ، فالذين يأخذون الثأر يريدون النكاية الأشد ، وقد يجعلون فداء المقتول عشرة من العائلة الأخرى ، وقد يُمثِّلون بجثثهم ليتشفوا ، وكل ذلك غير ملائم للقصاص.

فكانوا فى أيام الجاهلية يغالون فى الثأر ، والحق سبحانه وتعالى يبلغ البشرية جمعاء بأن هذه المغالاة فى الثأر تجعل نيران العداوة لا تخمد أبداً، فالحق سبحانه يرد أمر الثأر إلى حَدِّه الأدنى ، فإذا قتلت قبيلة عبداً فلا يصح أن تُصعِّد القبيلة الأخرى الأمر ، فتأخذ بالعبد حراً.

والحق يشرع بعد ذلك أن القاتل فى الأحوال العادية يتم القصاص منه بالقتل له أو بالدية ، فقد جاءت آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه : ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾**﴾ (المائدة)

وهكذا يصبح القصاص فى قتل النفس يتم بنفس أخرى ، فلا تفرقة بين العبد أو الحر أو الأنثى ، بل مطلق نفس بمطلق نفس ، وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يواجه بتقنين تشريع القصاص قضية يريد أن يميت فيها لدد الثأر وحنق الحقد.

فساعة تسمع كلمة قصاص وقتل ، فمعنى ذلك أن النفس مشحونة

بالبغضاء والكراهية ، ويريد أن يُصفِّى الضغن والحقد الثأرى من نفوس المؤمنين .

إن الحق جل وعلا يعطى لولى الدم الحق فى أن يقتل أو أن يعفو ، وحين يعطى الله لولى الدم الحق فى أن يقتل ، فإن أمر حياة القاتل يصبح بيد ولى الدم ، فإن عفا ولىُّ الدم لا يكون العفو بتقنين ، وإنما بسماحة نفس ، وهكذا يمتص الحق الغضب والغيظ.

وبعد ذلك يُرقِّق الحق سبحانه قلب ولى الدم ، فيقول : ﴿**فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** (١٧٨)﴾ (البقرة)

وإذا تأملنا قوله تعالى ﴿**فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ** (١٧٨)﴾ (البقرة). فلنلاحظ النقلة من غليان الدم إلى العفو ، ثم المبالغة فى التحنن، كأنه يقول : لا تنس الأخوة الإيمانية ﴿**فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**(١٧٨)﴾ (البقرة)

كأنه سبحانه يحثُّ ولى الدم على أن يعفو ولا ينسى أُخوة الإيمان ، صحيح أنه وَلِىٌّ للمقتول ، لأنه من لُحْمته ونسبه ، ولكن الله أراد أن يجعل أخوة الإيمان فوق أخوة الدم.

وقد أورد الحق الأخوة هنا لترقيق المشاعر ، لينبه أهل القاتل والقتيل معاً أن القتل لا يعنى أن الأخوة الإيمانية انتهت ، لا إن على المؤمنين أن يضعوا فى اعتبارهم أن أخوة الإيمان قد تفتر رابطتها ، وحين يتذكر أولياء الدم أخوة الإيمان ، فإن العفو يصبح قريباً من نفوسهم.

ولننظر إلى دقة الحق سبحانه فى تصفية غضب القلوب حين يضع الدية مكان القصاص بالقتل ، إن الدية التى سيأخذها أولياء الدم من القاتل قد تكون مؤجلة الأداء ، فقد يقدر القاتل ، أو أهله على الأداء العاجل ، لذلك فعلى الذى يتحمل الدية أن يؤديها ، وعلى أهل القتيل أن يتقبلوا ذلك بالمعروف ،

وأن تُؤدَّى الدية من أهل القاتل أو من القاتل نفسه بإحسان.

والثارات الموجودة فى المجتمعات المعاصرة سببها أننا لم نُمكِّن ولىَّ الدم من القاتل ، بدليل أنه إذا ما قدر قاتل على نفسه وذهب إلى أهل القتيل ودخل عليهم بيتهم ، وبالغ فى طلب العفو منهم ، وأخذ كفنه معه وقال لهم : جئتكم لتقتصوا منى ، وهذا كفنى معى فاصنعوا بى ما شئتم ، لم يحدث قط أن أهل قتيل غدروا بقاتل ، بل المألوف والمعتاد أن يعفوا عنه ، لماذا ؟

لأنهم تمكَّنوا منه وأصبحت حياته بين أيديهم ، وفى العادة تنقلب العداوة إلى مودة ، فيظل القاتل مديناً بحياته للذين عفوا عنه ، والذين يعرفون ذلك من أبناء القاتل ، يرون أن حياة أبيهم هبة وهبها لهم أولياء القتيل وأقرباؤه ، يرون أن عفو أهل القتيل هو الذى نجَّى حياة قريبهم ، وهكذا تتسع الدائرة وتنقلب المسألة من عداوة إلى وُدٍّ .

ولو لم يُشرِّع الله القصاص لأصبحت المسألة فوضى ، لكنه يُشرِّعه ، ثم يتلطف ليجعل أمر إنهاء القصاص فضلاً من ولى الدم ويُحبِّبه لنا ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** (١٧٨)﴾ (البقرة)

وهل من المعقول أن تكون الدية إحساناً ؟ لتتذكر أن القائل هو الله ، وكلامه قرآن ، والدقة فى القرآن بلا حدود ، إن الحق ينبه إلى أن أولياء الدم إذا ما قبلوا الدية فمعنى ذلك أن أهل القتيل قد أسقطوا القصاص عن القاتل ، وأنهم وهبوه حق الحياة ، لذلك فإن هذا الأمر يجب أن يُردَّ بتحية أو مكرمة أحسن منه كأن الحق لا يريد من أولياء الدم أن يرهقوا القاتل أو أهله فى الاقتضاء ، كما يريد أن يؤدى القاتل أو أهله الدية بأسلوب يرتفع إلى مرتبة العفو الذى ناله القاتل.

﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ (البقرة)

ففى ذلك الأمر تخفيف عما جاء بالتوراة ، ففى التوراة لم تكن هناك دية يفتدى القاتل بها نفسه ، بل كان القصاص فى التوراة بأسلوب واحد هو قتل إنسان مقابل إنسان آخر.

وفى الإنجيل لا دية ولا قتل ، لأن هناك مبدأ أراد أن يتسامى به أتباع عيسى عليه السلام على اليهود الذين انغمسوا فى المادية ، لقد جاء عيسى عليه السلام رسولاً إلى بنى إسرائيل لعله يستلُّ من قلوبهم المادية ، فجاء بمبدأ «مَنْ صفعك على خدِّك الأيمن فأدِرْ له الأيسر» .

أما الإسلام فقد جاء ديناً عامًا جامعًا شاملاً ، فيثير فى النفس التسامى ، ويضع الحقوق فى نصابها ، فأبقى القصاص ، وترك للفضل مجالاً ، لذلك يقول الحق عن الدية : ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ (البقرة)

إذن : فحكم الله فى جريمة القتل العمد هى القصاص أو دية مُسلَّمة لأهل القتيل ، ولكن هذا لا يمنع تطبيق الحد ، فيجب أن نفرق بين الحد وبين القصاص ، فالقصاص حق الولى ، والحد حق الله . وللولى أن يتنازل فى القصاص ، أما الحدود فلا يقدر أحد أن يتنازل عنها ، لأنها ليست حقاً لأحد ، ولكنها حق الله.

أما القتل الخطأ ، فقد قال الحق سبحانه عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ

﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ (النساء)

فلأن القتل وقع خطأ فلن يتم القصاص من القاتل ، ولكن عليه أن يدفع دية ، وهذه الدية توزع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته ، فهذا يعالج الأثر الحادث عن القتل الخطأ.

والدية بحكم الشرع تأتى من العاقلة[1] ، وبشرط ألا تؤخذ من الأصول والفروع ، فلا تجتمع عليهم مصيبة فقد إنسان على يد أحد من أصولهم أو فروعهم ، وهم بذلك يفزَّعون فلا يجمع عليهم هذا الأمر مع المشاركة فى الدية ، كأن التشريع أراد أن يعالج الهزة التى صنعها انحراف بعلاج هو وقاية من ردِّ الفعل فيحقق التوازن فى المجتمع.

فالقتل الخطأ قال فيه : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ .. ﴿٩٢﴾ ﴾ (النساء)

وهنا قد نسأل : وماذا يستفيد أهل المجنى عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة؟ نقول : قد لا تفيدهم فى شىء ، لكنها تفيد المجتمع ، لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأمَة هو مملوك لسيده ، والسيد يملك حركة العبد ، ولكن عندما يكون العبد حراً فهو حر الحركة ، فحركة العبد مع السيد محدودة ، وفى حريته حركة مفيدة للمجتمع.

إذن : فالقبض الذى حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط فى حرية واحد كان محكوماً فى حركته فنقول له : انطلق فى حركتك لتخدم كل مجتمعك. ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التى جعلها الإسلام لذلك.

وبعد هذا يقول الحق سبحانه ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ .. ﴿٩٢﴾ ﴾ (النساء)

---

(١) العاقلة : هم العصبة ، وهم القرابة من قِبَل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ . (لسان العرب ـ مادة : عقل).

لكى يصنع بسطاً فى نفوس أهل القتيل ، لذلك نجد أسرة قد فُجعت فى أحد أفرادها بحادثة وعاشوا الحزن أيامًا ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض ، مما يدل على أن فى ذلك شيئاً من السلوى ، وشيئاً من التعزية، وشيئاً من التعويض ، ولو كانت المسألة مزهوداً فيها لقالوا : «نحن لا نريد ذلك» ولكن ذلك لم يحدث.

فعلم الله سبحانه بالنفس البشرية جعل من قتل خطأ يفيد المجتمع الإيمانى بتحرير رقبة ، فيزيد المجتمع إنساناً حرًا يتحرك حركة إيمانية ، لذلك اشترط الحق أن تكون الرقبة مؤمنة ، حتى نضمن أن تكون الحركة فى الخير ، فنحن لا نحرر رقبة كافرة ، لأن الرقبة الكافرة عندما تكون مملوكة لسيد فشرُّها محصور ، لكن لو أطلقناها لكان شرُّها عامًا.

وبعد تحرير الرقبة هناك الدية لننثرها على كل مُفزَّع فى منفعته فيمن قُتل ، ولا نأخذها من أصول القاتل وفروعه ، فلا نجمع عليهم مصيبتين القتل الذى قام به أصلهم أو فرعهم ، لأن ذلك سيصيبهم بالفزع والخوف والإشفاق على مَنْ جنى منهم. وأن يشتركوا فى تحمُّل الدية ، وذلك العمل ناشىء عن حكمة ، فإذا كان الذى يضع الأشياء فى موضعها هو خالقها ، فلن يوجد أفضل من ذلك لتستقيم الأمور.

فالحكمة هى وضع الشىء فى موضعه ، فما بالنا حين يكون من يضع الشىء فى موضعه هو خالقنا ؟ لن نجد أفضل ولا أحسن من ذلك ، فإذا ما رأينا خللاً فى مجتمع فلنعلم أن هناك شيئاً قد ناقض حكمة الله.

٥ الصيام منهج لتربية الإنسان

الصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة، ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد، كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها، واحتمال ضغطها وثقلها ، إيثاراً لما عند الله من الرضا والمتاع ، وغاية الصيام الأولى هى إعداد قلوب المؤمنين للتقوى والشفافية والحساسية والخشية من الله.

يقول الحق سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)**﴾ (البقرة)

حين يخاطب الحق سبحانه الذين آمنوا يوضح : خذوا منى هذا التكليف، ففيه سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ولهذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى لا يذكر أمراً من أوامره بأى تكليف أو نهياً من نواهيه ، إلا مسبوقاً بقوله سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**﴾.

مثل قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)**﴾ (البقرة)

وقوله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ** ﴾ (البقرة)

وهذه التكليفات لم تأت مبنية للمعلوم ، فَمَن الذى يكتب؟ إنه الحق

سبحانه ، كما أنها صيغة مبنية دائماً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أى : أن الكتابة أتت من كثير. ونقول : صحيح أن الله سبحانه هو الذى كتب ، فلماذا لم يقل : (يا أيها الذين آمنوا كتبتُ عليكم)... ولماذا يقول : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٨٣)﴾ (البقرة) ؟

نقول : لأن الله وإنْ كان قد كتب ، إلا أنه لم يكتبها على كل خلقه ، بل كتبها على الذين آمنوا به ، وأنت بإيمانك أصبحتَ ملتزمًا بعناصر التكليف ، فكأن الحق سبحانه لم يكتب ، ثم يلزمك ، ولكن التزامك تَمَّ فى نفس اللحظة التى دخلتَ فيها باختيارك فى الإيمان.

وبذلك تكون كل هذه الأحكام قد كُتبت علينا باختيار كل منا ، فمن لم يختر الإيمان ليس مكتوباً عليه أن ينفذ أحكام الإيمان ، لأنها لا تُنفذ إلا بالعقد الإيمانى بيننا وبين الحق سبحانه ، وقد احترم سبحانه دخولنا فى هذا العقد ، فلم ينسبه لذاته العلية فقط ، بل شمل أيضاً كل مَنْ دخل فى الإيمان.

ولذلك ، فإنْ سأل أحد عن حكمة التكليف من الله ، نقول له : إن الحكمة تنبع من أنه سبحانه هو الذى كلَّف ، ولهذا أرى أن البحث عن أسباب التكليف هو أمر مرفوض إيمانياً ، فإذا قيل : إن الله فرض الصوم حتى يشعر الغنى بألم الجوع ، ليعطف على الفقير ، نقول : لا ، وإلا سقط الصوم عن الفقير ، لأنه يعرف ألم الجوع جيداً.

وإذا قيل لنا : إن الصوم يعالج أمراض كذا وكذا وكذا. نقول : إن هذا غير صحيح ، وإلا لَمَا أسقط الله فريضة الصوم عن المريض فى قوله تعالى : ﴿**وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** (١٨٥)﴾ (البقرة)

فإذا كان الله قد أباح للمريض أن يفطر ، فكيف يأتى إنسان ويقول : إن علة

فرض الصوم هى شفاء الأمراض ؟ كما أن هناك بعض الأمراض لا يُسمح معها بالصوم.

إذن : فنحن نصوم لأن الله فرض علينا الصوم ، وما دام الله قد قال فسبب التنفيذ هو أن القول صادر من الله سبحانه ، ولا شىء غير ذلك ، فإذا ظهرت حكمة التكليف فإنها تزيدنا إيماناً ، مثلما ثبت ضرر لحم الخنزير بالنسبة للإنسان ، لأن لحم الخنزير ملىء بالميكروبات والجراثيم التى يأكلها مع القمامة ، ونحن لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لهذا السبب ، بل نمتنع عن أكله لأن الله قد أمرنا بذلك ، ولو أن هذه الحكمة لم يكشف عنها الطب ما قلَّلَ هذا من اقتناعنا بعدم أكل لحم الخنزير ، لأننا نأخذ التكليف من الله ، وليس من أى مصدر آخر.

وهو سبحانه لم يكتب الصيام على من لا يؤمن به ، لأنه لا يدخل فى دائرة التعاقد الإيمانى ، وسيلقى سعيراً.

والصيام لون من الإمساك ، لأن معنى صام هو : أمسك . والحق سبحانه يقول لمريم عليها السلام : ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** (٢٦)﴾ (مريم)

والصوم هنا أى : عن الكلام. وهذه المسألة اعترض عليها بعض الذين يحبون أن ينتقدوا على القرآن ، فقالوا: كيف يأمرها بالصوم عن الكلام ، وفى نفس الوقت يأمرها أن تقول : " نذرت للرحمن صومًا" ؟

يجوز أنها قالت هذه العبارة أولاً لأول بشر رأته ليتم بذلك إعلان صومها. ثم انقطعت عن الكلام، ويجوز أن يكون المراد بالكلام هنا الإشارة ، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمّها ، فإنِ اختلفت اللغات بين البشر لأن كل

جماعة تواضعوا على لغة خاصة بهم ، فإن لغة الإشارة تظل لغة عامة يتفق عليها الجميع ، فمثلاً حين تومئ برأسك هكذا تعنى نعم فى كل اللغات ، وحين تشير بأصبعك هكذا تعنى لا . إذن : فالدلالة لغة عالمية وعامة.

فالصوم لغوياً هو الإمساك عن شىء ، أما الصوم تشريعياً فهو الصوم عن شهوتى البطن والفرج من الفجر وحتى الغروب ، ومبدأ الصوم لا يختلف من زمن إلى آخر . فقد كان الصيام كركن تعبدى موجوداً فى الديانات السابقة على الإسلام ، لكنه كان إما إمساكاً مطلقاً عن الطعام ، وإما إمساكاً عن ألوان معينة من الطعام كصيام النصارى ، فالصيام إذن هو منهج لتربية الإنسان فى الأديان ، وإن اختلفت الأيام عدداً ، وإن اختلفت كيفية الصوم.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ (البقرة)

ونعرف أن معنى التقوى هو أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية ، وأن نتقى بطش الله ، ونتقى النار وهى من آثار صفات الجلال . وقوله الحق ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾ (البقرة) أى : أن نهذب ونُشذِّب سلوكنا فنبتعد عن المعاصى ، والمعاصى فى النفس إنما تنشأ من شَرَه ماديتها إلى أمر ما ، والصيام كما نعلم يُضعف شِرَّة المادية وحِدَّتها وتسلُّطها فى الجسد.

ولذلك يقول ﷺ للشباب المراهق وغيره : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء »(١).

وكأن الصوم يشذب شرة المادية فى الجسم الشاب ، وإن تقليل الطعام يعنى

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٥ ، ٥٠٦٥ ، ٥٠٦٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٠٠) كتاب النكاح ـ باب استحباب النكاح (١) من حديث عبد الله بن مسعود.

تقليل وقود المادة ، فيقل السُّعَار الذى يدفع الإنسان لارتكاب المعاصى.

والصيام فى رمضان يعطى الإنسان الاستقامة لمدة شهر ، ويلحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر بها بعد رمضان ، والحق سبحانه لا يطلب منك الاستقامة فى رمضان فقط ، إنما هو سبحانه قد اصطفى رمضان كزمن تتدرب فيه على الاستقامة لتشيع من بعد ذلك فى كل حياتك ، لأن اصطفاء الله لزمان، أو اصطفاء الله لمكان ، أو لإنسان ليس لتدليل الزمان ، ولا لتدليل المكان ، ولا لتدليل الإنسان ، وإنما يريد الله من اصطفائه لرسول أن يشيع أثر اصطفاء الرسول فى كل الناس.

ولذلك نجد تاريخ الرسل مليئاً بالمشقة والتعب ، وهذا دليل على أن مشقة الرسالة يتحملها الرسول ، وتعبها يقع عليه هو ، فالله لم يصطفه ليدلله ، وإنما اصطفاه ليجعله أسوة.

وكذلك يصطفى الله من الزمان أيامًا لا ليدللها على بقية الأزمنة ، ولكن لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يشيع اصطفاء هذا الزمان فى كل الأزمنة ، كاصطفائه لأيام رمضان.

والحق سبحانه يصطفى الأمكنة ليشيع اصطفاؤها فى كل الأمكنة ، وعندما نسمع من يقول : زرت مكة والمدينة وذُقْت حلاوة الشفافية والإشراق والتنوير ونسيت كل شىء.

إن من يقول ذلك يظن أنه يمدح المكان ، وينسى أن المكان يفرح عندما يشيع اصطفاؤه فى بقية الأمكنة ، فأنت إذا ذهبت إلى مكة لتزور البيت الحرام ، وإذا ذهبت إلى المدينة لتزور رسول الله ﷺ ، فلماذا لا تتذكر فى كل الأمكنة أن الله موجود فى كل الوجود ، وأن قيامك بأركان الإسلام وسلوك الإسلام هو تقرب من الله ومن رسول الله ﷺ .

صحيح أن تعبُّدك وأنت فى جوار بيت الله يتميز بالدقة وحُسْن النية ، كأنك وأنت فى جوار بيت الله وفى حضرة رسول الله ﷺ تستحى أن تفعل معصية ، وساعة تسمع "الله أكبر" تنهض للصلاة وتخشع ، ولا تؤذى أحداً، إذن : لماذا لا يشيع هذا السلوك منك فى كل وقت وفى كل مكان ؟ إنك تستطيع أن تستحضر النية التعبدية فى أى مكان ، وستجد الصفاء النفسى العالى.

إذن : فحين يصطفى الله زماناً أو مكاناً ، أو يصطفى إنساناً إنما يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يشيع اصطفاء الإنسان فى كل الناس ، واصطفاء المكان فى كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان فى كل الأزمنة.

ولذلك أتعجب عندما أجد الناس تستقبل رمضان بالتسبيح وبآيات القرآن ، وبعد أن ينتهى رمضان ينسون ذلك ، وأقول : هل جاء رمضان ليحرس لنا الدين ؟ أم أن رمضان يجىء ليدربنا على أن نعيش بخُلق الصفاء فى كل الأزمنة.

وقوله الحق : ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** (١٨٣)﴾ (البقرة) يدلنا على أن المسلمين ليسوا بدعًا فى مسألة الصوم ، بل سبقهم أناس من قبل إلى الصيام ، وإن اختلفت شكلية الصوم.

وساعة يقول الحق ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** (١٨٣)﴾ (البقرة)، فهذا تقرير للمبدأ ، مبدأ الصوم ، ويُفصِّل الحق سبحانه المبدأ من بعد ذلك ، فيقول ﴿**أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** (١٨٤)﴾ (البقرة)

وكلمة (أياماً) تدل على الزمن وتأتى مجملة ، وقوله الحق عن تلك الأيام إنها "معدودات" يعنى : أنها أيام قليلة ومعروفة.

ومن بعد ذلك يوضح الحق لنا مدة الصيام ، فيقول :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ (البقرة)

إذن : فمدة الصيام هى شهر رمضان ، ولأنه سبحانه العليم بالضرورات التى تطرأ على هذا التكليف فهو يشرع لهذه الضرورات ، وتشريع الله لرخص الضرورة إعلام لنا بأنه لا يصح مطلقاً لأىٍ إنسان أن يخرج عن إطار الضرورة التى شرعها الله ، وهو سبحانه لا يكلف إلا بما فى وُسْعك ، بدليل أن المشرع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليف ليس فى الوسع.

ولْنَرَ رحمة الحق وهو يقول : ﴿ **وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴿١٨٥﴾﴾ (البقرة). وكلمة (مريضاً) كلمة عامة ، وأنت فيها حجة على نفسك وبأمر طبيب مسلم حاذق يقول لك : إن صمت فأنت تتعب . والمرض مشقته مزمنة فى بعض الأحيان ، ولذلك تلزم الفدية بإطعام مسكين.

وكذلك يرخص الله لك عندما تكون ﴿**عَلَىٰ سَفَرٍ** ﴿١٨٥﴾﴾ (البقرة) والمشقة فى الانتقال قديماً كانت عالية ، ولكن لنقارن سفر الأمس مع سفر اليوم من ناحية الإقامة ، وستجد أن سفر الآن بإقامة الآن فيه مشقة.

ومن العجيب أن الذين يناقشون هذه الرخصة يناقشونها ليمنعوا الرخصة ،

ونقول لهم : اعلموا أن تشريع الله للرخصة ينقلها إلى حكم شرعى مطلوب ، وفى ذلك يروى لنا جابر بن عبد الله ﷺ قال ، كان رسول الله ﷺ فى سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظُلِّلَ عليه ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : صائم ، فقال : «ليس من البر الصوم فى السفر» .

وعندما تقرأ النص القرآنى تجده يقول ﴿ **وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴿١٨٥﴾ (البقرة) أى : أن مجرد وجود فى السفر يقتضى الفطر والقضاء فى أيام أخر ، ومعنى ذلك أن الله لا يقبل منك الصيام ، صحيح أنه سبحانه لم يقل لك "أفطر" ولكن مجرد أن تكون مريضاً مرضاً مؤقتًا أو مسافراً فعليك الصوم فى عدة أيام أُخَر ، وأنت لن تشرع لنفسك.

وقد يقول قائل : ولكن الصيام فى رمضان يختلف عن الصوم فى أيام أُخَر ، لأن رمضان هو الشهر الذى أُنزل فيه القرآن ، وأقول : إن الصوم هو الذى يتشرف بمجيئه فى شهر القرآن ، ثم إن الذى أنزل القرآن وفرض الصوم فى رمضان هو الحق سبحانه الذى وهب الترخيص بالفطر للمريض أو المسافر، ونقله إلى أيام أخر فى غير رمضان ، وسبحانه لا يعجز عن أن يهب الأيام الأخر نفسها التجليات الصفائية التى يهبها للعبد الصائم فى رمضان.

إن الحق سبحانه حين شرع الصوم فى رمضان إنما أراد أن يشيع الزمن الضيق - زمن رمضان - فى الأمر المتسع ، وهو مدار العام ، ونحن نصوم رمضان فى الصيف ، ونصومه فى الشتاء ، وفى الخريف والربيع. إذن : فرمضان يمرُّ على كل العام.

والصيام منهج لتربية الإنسان ، وكان موجوداً قبل أن يبعث الحق سبحانه سيدنا رسول الله ﷺ ، وعندما جاء الرسول ﷺ دخل الصوم على

المسلمين اختيارياً فى البداية ، ثم فريضة من بعد ذلك ، وقد شرع الله الصوم فى الإسلام بداية بأيام معدودة ، ثم شرح لنا الأيام المعدودة بشهر رمضان.

والذى يطمئن إليه خاطرى أن الله بدأ مشروعية الصوم بالأيام المعدودة ، ثلاثة أيام من كل شهر، وهو اليوم العاشر ، والعشرون ، والثلاثون من أيام الشهر، كانت تلك هى الأيام المعدودة التى شرع الله فيها أن نصوم ، وكان الإنسان مُخيَّراً فى تلك الأيام المعدودة : إن كان مطيقاً للصوم أن يصوم أو أن يفتدى ، أما حين شرع الله الصوم فى رمضان فقد أصبح الصوم فريضة تعبدية وركناً من أركان الإسلام ، وبعد ذلك جاءنا الاستثناء للمريض والمسافر.

وكلمة "رمضان" مأخوذة من مادة (الراء – والميم – والضاد) ، وكلها تدل على الحرارة ، وتدل على القيظ ، و"رمض الإنسان" أى : حرّ جوفه من شدة العطش. و"الرمضاء" أى : الرمل الحار. وعندما يقال "رمضت الماشية" أى: أن الحر أصاب خُفَّها فلم تَعُدْ تقوى أن تضع رِجْلها على الأرض.

إذن : فرمضان مأخوذ من الحر ومن القيظ ، وكأن الناس حينما أرادوا أن يضعوا أسماء للشهور جاءت التسمية لرمضان فى القيظ فى وقت كان حاراً ، فسموه رمضان ، كما أنهم ساعة سموا مثلاً "ربيعًا الأول" و"ربيعاً الآخر" كان الزمن متفقاً مع وجود الربيع ، وعندما سموا "جمادى الأولى" و"جمادى الآخرة" كان الماء يجمد فى هذه الأيام.

فكأنهم لاحظوا الأوصاف فى الشهور ساعة التسمية ، ثم دار الزمن العربى الخاص المحدد بالشهور القمرية فى الزمن العام للشمس ، فجاء رمضان فى صيف ، وجاء فى خريف ، لكن ساعة التسمية كان الوقت حاراً.

وكأن الحق سبحانه وتعالى حينما هيأ للعقول البشرية الواضعة للألفاظ أن

يضعوا لهذا الشهر ذلك الاسم ، دل على المشقة التى تعترى الصائم فى شهر رمضان.

وبعد ذلك يعطى له سبحانه منزلة تؤكد لماذا سُمِّى ؟ إنه الشهر الذى أُنزل فيه القرآن ، والقرآن إنما جاء منهج هداية للقيم ، والصوم امتناع عن الاقتيات ، فمنزلة الشهر الكريم أنه يربى البدن ويربى النفس ، فناسب أن يوجد التشريع فى تربية البدن وتربية القيم مع الزمن الذى جاء فيه القرآن بالقيم.

وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : ﴿**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿١٨٥﴾﴾ (البقرة) فالعبادة التى نفهم أن فيها مشقة هى الصيام ، وبعد ذلك تُكبِّرون الله ، لأن الحق سبحانه عالم أن عبده حين ينصاع لحكم أراده الله وفيه مشقة عليه مثل الصوم يتحمله.

وعندما يشعر بأنه قد انتهى منه ، فالحق سبحانه عالم بأن العبد سيجد فى نفسه إشراقاً يستحق أن يشكر الله الذى كلَّفه بالصوم ووفَّقه إلى أدائه ، لأن معنى ﴿**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ** ﴾ يعنى أن تقول (الله أكبر) ، وأن تشكره على العباده التى كنت تعتقد أنها تُضنيك ، لكنك وجدت فيها تجليات وإشراقات ، فتقول : الله أكبر من كل ذلك ، الله أكبر لأنه حين يمنعنى يعطينى.

والحق سبحانه يعطى حتى فى المنع ، فأنت تأخذ مقومات حياة ويعطيك فى رمضان ما هو أكثر من مقومات الحياة ، وهو الإشراقات التى تتجلى لك ، وتذوق حلاوة التكليف ، وإن كان قد فوَّت عليك الاستمتاع بنعمة ، فإنه أعطاك نعمة أكثر منها.

لقد أسدى الله إليكم جميلاً ، وساعة يوجد الصفاء بين "العابد" وهو الإنسان ، والمعبود وهو الرب ، ويثق العابد بأن المعبود لم يكلفه إلا بما يعود

عليه بالخير ، هنا يحسن العبد ظنه بربه ، فيلجأ إليه فى كل شىء ، ويسأله عن كل شىء ، ولذلك جاء هنا قول الحق سبحانه بعد آية أمر المؤمنين بالصوم :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ (البقرة)

فما دُمْتَ قد ذُقْت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية فى الصيام فأنت ستتجه إلى شكره سبحانه.